

أحلام مستغانمي

مرفق CD جاهدة وهبه
تغنّي نسيان أحلام مستغانمي

دار الآداب

أحلام مستغانمي

نسيان com

دار الآداب ـ بيروت

نسيان com
أحلام مستغانمي/ روائيّة جزائريّة
الطبعة الأولى عام 2009
الطبعة الثالثة عام 2010
ISBN 978-9953-89-122-4

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
Website: www.adabmag.com

أحبّيه كما لم تحبّ امرأة

وانسيه كما ينسى الرجال

إهداء

أُهدي هذا الكتاب أوّلاً إلى قراصنة كتبي. فلا أعرف أحدًا انتظر إصدارًا جديدًا لي كما انتظروه.

أنا مدينة لهم بانتشاري. فلولاهم ما فاضت المكتبات بآلاف النسخ ـ المقلّدة طبق الأصل ـ عن كتبي.

يُسعدني أن يجد الكلّ في هذا الكتاب باب رزق «الله يجعلني غابة والناس فيّ حطّابة».

المجد للّصوص.. جميعهم. هذا زمن الأيدي التي تنهب لا تلك التي تكتب.

ثم.. إلى صديقتي تلك،

إلى نبل ترفّعها أرفع هذا الكتاب.

وإلى النساء اللواتي عقدن قرانهنّ على الانتظار،

وإلى «الرجال الرجال» الذين بمجيئهم تتغيّر الأقدار.

بلاغ رقم واحد:

إلى من يشاركني الرأي، ويودّ الانخراط في حزب جديد لا ذاكرة له، ولا سوابق مصرفيّة، ولا تاريخ دموي، ولا شعارات نضاليّة أو أصوليّة، بإمكانه الانضمام إلينا في موقع:

www.nessyane.com

ليس في مشروعنا من خطّة، سوى مواجهة إمبرياليّة الذاكرة، والعدوان العاطفي للماضي علينا.

ليس في جيوبنا وعود بحقائب وزاريّة، فقط نعدكم بأن نحمل عنكم وزر الخيبات.

لا نتوقّع دعمًا ماديًا من أحد؛ لذا نحن فقراء إلى دعواتكم بالخير.

أيّها الناس، اسمعوا وَعُوا. لا أرى لكم والله من خلاص إلاّ في النسيان. فلا تشقَوا بذاكرتكم بعد الآن. انشقُّوا عن أحزابكم وطوائفكم وجنسيّاتكم ومكاسبكم، وانخرطوا في حزب، جميعنا متساوون فيه أمام الفقدان.

ليُخبر قارئ هذا الكتاب من لم يقرأه منكم.

توضيح للرجال المتسلّلين إلى هذا الكتاب:

أيّها «الرجال الرجال» سنصلّي لله طويلاً كي يملأ بفصيلتكم مجدّدًا هذا العالم، وأن يساعدنا على نسيان الآخرين! (*)

ليس هذا «مانيفستًا» نسائيًّا.

إنّه جردة نسائيّة ضدّ الذكورة، دفاعًا عن الرجولة، تلك الآسرة التي نباهي بوقوعنا في فتنتها، إذ من دونها ما كنّا لنكون إناثًا ولا نساءً.

من قال إنّنا نهجس بتلك الفحولة التي تُباع في الصيدليّات؟ أو تلك الذكورة النافشة ريشها التي تفتح أزرار قمصانها لكي تبدو السلاسل الذهبيّة الضخمة، وما فاض من عشب، وتضع في أصابعها خواتم بأحجار لافتة للنظر؟ رجولة الساعات الثمينة والسيجار الفخم التي تُشهر أناقتها وعطرها وموديل سيّارتها وماركة جوّالها، كي تشي بفتوحاتها السابقة وتغرينا بالانضمام إلى قائمة ضحاياها.

(*) النصوص الواردة في هذا الكتاب دون قوسين جميعها للمؤلّفة.

ما نريده من الرجال لا يُباع، ولا يُمكن للصين ولا لتايلاند أن تقوما بتقليده، وإغراق الأسواق ببضاعة رجاليّة تفي بحاجات النساء العربيّات.

ذلك أنّ الشهامة والشموخ والفروسيّة والأنفة وبهاء الوقار ونبل الخُلق وإغراء التقوى، والنخوة، والإخلاص لامرأة واحدة، والترفّع عن الأذى، وستر الأمانة العاطفيّة، والسخاء العشقيّ الموجع في إغداقه، والاستعداد للذود عن شرف الحبيبة بكلّ خليّة، وحتى آخر خليّة، ومواصلة الوقوف بجانبها حتى بعد الفراق.

تلك خصال لعمري ليست للبيع، بل إنّ مجرّد سردها هنا يدفع إلى الابتسام، ويشعرنا بفداحة خساراتنا وضآلة ما في حوزتنا.

أين ذهب الرجال؟ الكلّ يسأل.

اختفاء الرجولة لم يلحق ضررًا بأحلام النساء ومستقبلهنّ فحسب، بل بناموس الكون وبقانون الجاذبيّة.

ما الاحتباس الحراري إلاّ احتجاج الكرة الأرضيّة على عدم وجود رجال يغارون على أنوثتها. لقد سلّموها كما سلّمونا «للعلوج»، فعاثوا فينا وفيها خرابًا وفسادًا.

لتتعلّم النساء من أمّهنّ الأرض؛ لا أحد استطاع إسكاتها ولا إبرام معاهدة هدنة معها. ما فتئت تردّ على تطاولهم عليها بالأعاصير والزوابع والحرائق والفيضانات. هي تعرف مع من تكون معطاءة وعلى من تقلب طاولة الكون.

ليعقدوا ما شاؤوا من المؤتمرات ضدّ التصحّر والتلوّث وثقب

الأوزون والاحتباس الحراري. ليست الأرض مكترثة بما يقولون. هي تدري أنّ الرجولة لا تتكلّم كثيرًا، لا تحتاج إلاّ أن تكون، فيستقيم بوجودها ناموس الكون.

الرجولة..

هي التي تؤمن إيمانًا مطلقًا لا يراوده شكّ أنّها وُجدت في هذا العالم لتعطي لا لتؤذي، لتبني وتحبّ وتهب.

الرجولة في تعريفها الأجمل، تختصرها مقولة كاتب فرنسي **«الرجل الحقيقي ليس من يغري أكثر من امرأة بل الذي يغري أكثر من مرّة المرأة نفسها»**. الرجولة تؤمن بأنّ العذاب ليس قدر المحبّين، وبأنّ الدمار ليس ممرًّا حتميًّا لكلّ حبّ، ولا كلّ امرأة يمكن تعويضها بأخرى، وأنّ النضال من أجل الفوز بقلب امرأة والحفاظ عليه مدى العمر، هما أكبر قضايا الرجل وأجملها على الإطلاق. وعليها يتنافس المتنافسون.

هذا الكتاب يسمح لمن تسلّل من الرجال هنا، أن يتعلّم من أخطاء غيره من «الذكور» من باب **«تعلّم الأدب من قليل الأدب»**.

عليهم أن يتعلّموا الحبّ من قليلي الحبّ. أن يعتبروا بمصائر الكاذبين والخونة والمتذاكين والأنانيّين. وليأخذوا علمًا أنّ النساء استيقظن من سباتهنّ الأزلي.

أمّا الرجال الحقيقيّون فأعتذر لهم. أحبّ إثم ذكائهم. فأنا واثقة أنّهم سينجحون في رشوة النساء بما يملكون من وسائل «رجاليّة» لا تصمد أمام إغراءاتها امرأة.

لمزيد من الاعتداد بالنفس والسخرية، سيكلّفون امرأة بإحضار هذا الكتاب المحظور عليهم، كي يضحكوا في سرّهم حتى قبل أن يقرأوه. فهم يدرون أنّ المرأة كالشعوب العربيّة تتآمر على قضيّتها، وتخون بنات جنسها ولاءً منها لوليّ قلبها: الرجل.

لذا كلّ مكاسب المرأة عبر التاريخ كانت بفضل فرسان منقذين نبّهوها إلى خدعة الذكورة.

سنظلّ نحلم أن تكون لنا بهؤلاء الرجال قرابة. أن نكون لهم أمّهات أو بنات.. زوجات أو حبيبات.. كاتبات أو ملهمات.

أولئك الجميلون الذين يسكنون أحلامنا النسائيّة، الذين يأتون ليبقوا.. ويُطَمْئِنُوا.. ويُمْتِعُوا.. ويذودوا.. ليحموا ويحنوا ويسندوا.. الذين ينسحبون ليعودوا، ولا يتركون خلفهم عند الغياب كوابيس ولا جراحًا ولا ضغينة. فقط الحنين الهادر لحضورهم الآسر، ووعدًا غير معلن بعودتهم لإغرائنا كما المرّة الأولى.

كم من مرّة سنقع في حبّهم بالدوار ذاته، باللهفة إيّاها. غير معنيّات برماد شعرهم وبزحف السنين على ملامحهم.

ليشيخوا مطمئنّين. لا الزمن، لا المرض، لا الموت، سيقتلهم من قلوبنا نحن «النساء النساء».

كيف لحياة واحدة أن تكفي لحبّ رجل واحد؟

كيف لرجل واحد أن يتكرّر.. أن يتكاثر بعدد رجال الأرض.

* * *

هكذا تورّطت في هذا الكتاب

أغبطك نعمة الخشب، نعمة النسيان

أيّها الباب

سوف تحيا من بعدي

فقيد الشّعر بسّام حجّار

الكاتب مرشدًا عاطفيًّا

بماذا يفيد الأدب إن لم يعلّمنا كيف نحبّ؟

كامي لورانس

للشاعر ريلكه كتاب عنوانه «رسائل إلى شاعر شابّ»، يشرح فيه، لمن يريد القبض على نار الشعر، كيف يصبح شاعرًا. وأيّ جحيم عليه أن يعبر قبل بلوغه فردوس القصيدة. ومؤخّرًا أصدر الروائي البيروفي ـ الوسيم شكلاً وقلمًا ـ ماريو بارغاس يوسا، كتابًا بعنوان «رسائل إلى روائي شابّ»، هبّ من خلاله لنجدة الروائيّين الشباب الحائرين أمام الكيمياء المعقّدة للإبداع التي تتفاعل في دهاليز النفس المعتمة والقصيّة، مثل فنّ لا يمكن القبض عليه.

أمّا المفاجأة الأخيرة فكانت القصيدة التي تركها محمود درويش قبل رحيله كوصيّة لشاعر شابّ، كمن يترك آخر تعاليمه، ويُهدي أخطاءه، لمن سيواصل الطريق بعده، مختصرًا عليه عمرًا من الهفوات.

حدث كثيرًا أن تمنّيتُ لو أنّي أملك الوقت والصبر اللازميْن لكتابة «رسائل إلى عاشقة شابّة».

لا أحد يعلّمنا كيف نحبّ. . كيف لا نشقى. . كيف ننسى. . كيف نتداوى من إدمان صوت من نحبّ. . كيف نكسر ساعة الحبّ. . كيف لا نسهر. . كيف لا ننتظر. . كيف نقاوم تحرّش الأشياء بنا. . كيف نحبط مؤامرة الذكريات. . وصمت الهاتف.

كيف لا نهدر أشهرًا وأعوامًا من عمرنا في مطاردة وهم العواطف. . كيف نتعاطف مع جلاّدنا من دون أن نعود إلى جحيمه. . كيف ننجو من جحيمه من دون أن نلقي بأنفسنا في تهلكة أوّل حبّ. . كيف نخرج من بعد كلّ حبّ أحياء وأقوياء. . وربّما سعداء.

هل من يُخبرنا، ونحن نبكي بسبب ظلم من أحببنا، أنّنا يومًا سنضحك ممّا اليوم يُبكينا؟

سنندم كثيرًا لأنّنا أخذنا الحبّ مأخذ الجدّ. فلا أحد قال لنا إنّه في الواقع أجمل أوهامنا وأكثرها وجعًا.

لسبب بسيط: قدر الحبّ الخيبة؛ لأنّه يولد بأحلام شاهقة أكبر من أصحابها. ذلك أنّه يحتاج أن يتجاوزهم ليكون حبًّا.

لا يمكن حصر عدد الكتّاب الذين، عَبْرَ الأزمنة والحضارات وبكلّ اللغات، عملوا مرشدين عاطفيّين للتائهين من العشّاق في الأزقّة والشوارع الجانبيّة للحبّ. ليس لي هذا الادّعاء. أنا مجرّد ممرّضة لا تملك سوى حقيبة إسعافات أوّليّة لإيقاف نزيف القلوب الأنثويّة عند الفراق.

مع القطن والسبيرتو والضمّادات، أحمل لكنْ كثيرًا من الضحك. هل تعرفن علاجًا أفضل؟

أمّا النسيان فتركتُ له القُبل.

«ما لا تستطيع أن تتفاداه قبّله». ما هذا الكتاب سوى إغراء للنسيان. ما فعلت هنا سوى لثمه في كلّ صفحة. لكأنّ تعبير أحمد شوقي «في جحيم من القبل» لم يُخلق إلاّ لوصف هذه القبل المحمومة التي نتركها على شفاه دمار لا نستطيع أن نتفاداه، ونزداد له اشتهاءً كلّما قبّلناه.

كتبت «دليل النسيان» هذا بسخرية كبيرة. أريدكنّ أن تضحكن؛ لا شيء يستحقّ الأسى. «هل ثمّة ما هو أكثر سعادة من الفراق؟» تسأل غادة السمّان، أو بالأحرى هي تجزم بذلك.

في النهاية، ما النسيان سوى قلب صفحة من كتاب العمر. قد يبدو الأمر سهلاً، لكن ما دمت لا تستطيع اقتلاعها ستظلّ تعثر عليها بين كلّ فصل من فصول حياتك.

ليس نظرك هو الذي يتوقّف عندها، بل عمرك المفتوح عليها دومًا، كأنّها مستنسخة على كلّ صفحات حياتك. لذا يعلّق مالك حدّاد بتهكّم مرّ «يجب قلب الصفحة، هل فكّرتم في وزن الصفحة التي نقلبها؟».

دور الكاتب تخفيف وزن هذه الصفحة ما استطاع، وقلبها نيابة عنكم. دعوني أحاول؛ ربّما استطعت قلب صفحتكم هذه. ذلك أنّه من الأسهل قلب صفحة الآخرين!

الفصول الأربعة.. للحبّ

كتبتني
باليد التي أزهرت في ربيعك
بالقبلات التي كنت صيفها
بالورق اليابس الذي بعثره خريفك
بالثلج الذي صوبك سِرت على ناره حافية

قبل أعوام عَلِمْتُ أنّ بعض الجمل التي جاءت في كتبي يتبادلها العشّاق في ما بينهم كرسائل هاتفيّة.

ما كان يُضاهي سعادتي إلاّ ذعري أمام هذا الخبر. أيّة مسؤوليّة أن أصبح شيخة طريقة في الحبّ، وأن يغدو لي أتباع ومريدون يسيرون على مذهبي العاطفي، ويروون عنّي أقوالاً لست واثقة تمامًا من صحّتها، ونصائح ما خبرت عواقبها. فأنا لا أملك لهم فتاوى ولا مواعظ ولا أحكامًا شرعيّة. الحبّ لا شرعة له ولا مذهب.

لكنّي دومًا وجدتني متورّطة في قصص حبّ قرّائي. حتى الرجال كانوا يستنجدون بي لحلّ مشاكلهم العاطفيّة. [حين صدرت

«ذاكرة الجسد» قبل خمس عشرة سنة التفّت حولي كلّ طوائف العشّاق. أذكر أنّني قضيت أسابيع على الهاتف أحلّ مشكلة ضابط في الجيش يحبّ فتاة من غير طائفته. ومشكلة شاعر حجبوا عنه حبيبته ـ تمامًا كما في العصر الجاهلي ـ منعوها من مغادرة البيت ومنعوا عنها الهاتف، وما عاد يعلم عنها شيئًا. وكان عليّ أن أتنكّر وأن أتقصّى أخبارها بعد أن جاءني بهاتف أهلها.

أحدهم بعث لي مرّة رسالة من الأردن يطلب منّي أن أهاتف حبيبته في عيد ميلادها، لأنّها ترفض الردّ على هاتفه. كان يريد أن أبلغها أنّه يحبّها ويعتذر منها لأنّه أخطأ في حقّها، أو لعلّه خانها.

قال إنّه ما وجد طريقًا إليها سواي لعلمه كم تحبّني، وكم بإمكاني أن أؤثّر على قرارها. من حسن حظّه أنّني مررتُ بمكتب البريد يومها. فقد وصلت الرسالة في يوم عيدها. وقضيت وقتًا على الهاتف أقنعها بالدفاع عن حبّها. ومنح هذا العاشق فرصة أخرى.

وفي أحد معارض الكتاب بالجزائر، قصدني أحدهم سعيدًا برؤيتي. قال إنّه تردّد على المعرض عساه يصادفني، لأنّ حبيبته طلبت منه مهرًا كتاب «عابر سرير» الذي كان قد صدر لتوّه بتوقيعي. فتركتُ لها قبلة على الكتاب وحدّثتها على هاتفه ووعدتهما يوم زواجهما بثلاثة أيّام إقامة في أيّ فندق يختارانه في الجزائر. فقد كان واضحًا أنّهما طالبان جامعيّان لا يملكان إلاّ ثراء الحبّ. كانت تلك أجمل وعودي على الإطلاق، ككاتبة متورّطة في حياة قرّائها، لكنّهما ما عاودا الاتّصال بي. لعلّهما افترقا.. أو لعلّها ما أحبّت الكتاب!].

على مدى عمر من الكتابة، كم استودعتني النساء من أسرار! وكم تجمّعت لديّ قصص عن الحبّ! وكم امتلأت دفاتري بأفكار ومقولات في الحبّ يصعب حشرها جميعها في أعمالي الروائيّة! كانت نيّتي الأولى جمعها في كتاب واحد، لكنّها غدت أكثر من أن يضمّها كتاب. وحين رحت أفكّر في تقسيمها حسب المواضيع، غدت مقسّمة حسب مراحل الحبّ، أي حسب فصوله الأربعة:

فصل اللقاء والدهشة

فصل الغيرة واللهفة

فصل لوعة الفراق

فصل روعة النسيان

إنّها رباعيّة الحبّ الأبديّة، بربيعها وصيفها وخريفها وأعاصير شتائها. وحده إبراهيم ناجي استطاع أن يختصرها في قصيدة واحدة هي رائعته «الأطلال». ذلك أنّ كلّ فصول الحبّ متداخلة، ولا يمكن الفصل بين العواطف بصرامة. لذا توقّعوا أن يفيض فصل النسيان على فصل الفراق ما دام يُفضي إليه. وقد يبدو متوحّدًا فصل الوقوع في الحبّ مع فصل الغيرة واللّهفة بحكم انصهار الحالة العشقيّة وتطرّف المشاعر وتناقضها، على مدى العلاقة العاطفيّة. لكن ستكون لكلّ فصل الوردة التي تُميّز خصوصيّة عاطفته، كما في هذا الكتاب الذي تزيّن غلافه وردة النسيان...

أثناء حديث جمعني بالغالية المطربة جاهدة وهبه التي شاركتني الحماس لفكرة الفصول، فكّرنا أن يكون كلّ كتاب مرفقًا بأغانٍ

تُناسب فصله العاطفيّ. فجاهدة التي لحّنت وغنّت لي نصوصًا كثيرة، تملك لي أرشيفًا غنائيًّا يغطّي الفصول الأربعة ويزيد.

وهكذا تحوّل المشروع من كتاب إلى سلسلة من أربعة كتب عن الحبّ، ربّما شغلت فيه النساء الحيّز الأكبر بنيّة رفع الغبن العاطفي عنهنّ بصفتهنّ أولى ضحايا الحبّ!

لقد تحمّسْتُ للفكرة، إلى حدّ أنّني سَرَقْتُ من عملي الروائيّ (الذي أصبح جاهزًا تقريبًا) ثلاثة أشهر لكتابة هذا الكتاب. إن بقيت على هذا الحماس ربّما تمكّنت في حدود السنة من إنجاز هذه السلسلة (قولوا إن شاء الله!).

لماذا اخترت النسيان فصلاً أوّلاً وليس الحبّ؟

لأنّ على النسيان يُؤسّس الحبّ ذاكرته الجديدة، ومن دونه لا يمكن لحبّ أن يولد. ولأنّه الفصل الذي يتفوّق فيه علينا الرجال، ويذهلوننا بقدرتهم على التعافي والشفاء، بينما تترك بعض النساء سنوات من أعمارهنّ، فائض قيمة مُضافة.. ثمنًا لنسيان رجل سبق لحبّه أن أخذ منهنّ سنوات أخرى.

كتبْتُ هذا الكتاب، وحولي نساء يخضن معارك بالسلاح الأبيض مع الماضي. صديقات يستنجدن بي لفضّ الاشتباك بينهنّ وبين الذكريات، كما لو كنت من «رجال القبّعات الزرقاء» المكلّفين من جمعيّة الأمم بالفصل بين طرفي نزاع.

لأولئك النساء المعذّبات، ما كان يمكن أن أقدّم كتابًا في الحبّ وهنّ ينزفن بجروح الماضي، كان لا بدّ أن يتعافين تمامًا ـ كما

الرجال ـ أن يتقبّلن فكرة أن ينسين أخيرًا مثلهم، ما دام النسيان في متناول الجميع، كي يغادرن شتاء الحبّ إلى ربيعه.

[طلب أستاذ ياباني من تلاميذه تعريف الثلج. أحدهم أجاب «إنّه بداية الربيع». كان التلميذ مشروع شاعر. وكان بذلك التعريف يختصر لنا ميلاد الحبّ من صقيع النهايات والخيبات، أي ممّا سيُذيبه النسيان غدًا ويغذّي بجداوله مروج الحبّ الجديد... المزهر].

* * *

أيّـهـا الـسـاهـر تـغـفـو	تـذكـر الـعـهـد وتـصـحـو
وإذا مـا الـتـأم جـرح	جـدّ بـالـتـذكـار جـرح
فـتـعـلّـمْ كـيـف تـنـسـى	وتـعـلّـمْ كـيـف تـمـحـو

إبراهيم ناجي

ليشهد الأدب أنّني بلّغت!

الحبّ مثل الموت وعد لا يُردّ ولا يزول

محمود درويش

أكبر لغزين في الحياة هما قطعًا الموت والحبّ.

كلاهما ضربة قدر صاعقة لا تفسير لها خارج (المكتوب). لذا، تتغذّى الأعمال الإبداعيّة الكبرى من الأسئلة الوجوديّة المحيّرة التي تدور حولهما.

ذلك أنّ أحدًا لا يدري لماذا يأتي الموت في هذا المكان دون غيره، ليأخذ هذا الشخص دون سواه، بهذه الطريقة لا بأخرى، ولا لماذا نقع في حبّ شخص بالذات. لماذا هو؟ لماذا نحن؟ لماذا هنا؟ لماذا الآن؟

وحدهم الذين عادوا من «الحبّ الكبير» ناجين أو مدمّرين، في إمكانهم أن يقصّوا علينا عجائبه، ويصفوا لنا سحره وأهواله، وأن ينبّهونا إلى مخاطره ومصائبه، لوجه الله.. أو لوجه الأدب.

إذا لم يكن للأدب في حياتنا دور المرشد العاطفيّ، من يتولاّه إذن؟

ومن يُعدّنا لتلك المغامرة الوجدانيّة الكبرى، التي ستهزّ كياننا عندما لا نكون مهيّئين لها، وستواصل ارتجاجاتها التأثير في أقدارنا وخياراتنا، حتى بعد أن ينتهي الحبّ ويتوقّف زلزاله؟

إن كانت الهزّات العاطفيّة قدرًا مكتوبًا علينا، كما كُتِبَت الزلازل على اليابان، فلنتعلّم من اليابانيّين إذن، الذين هزموا الزلزال بالاستعداد له، عندما اكتشفوا أنّهم يعيشون وسط حزامه.

يمرّ زلزال خفيف على بلد عربي، فيدمّر مدينة عن بكرة أبيها، ويقضي على الحياة فيها لسنوات عدّة. ذلك أنّ الإنسان العربي قدريّ بطبعه، يترك للحياة مهمّة تدبّر أمره. وفي الحياة، كما في الحبّ، لا يرى أبعد من يومه، وهو جاهز تمامًا لأن يموت ضحيّة الكوارث الطبيعيّة أو الكوارث العشقيّة، لأنّه يحمل في تكوينه جينات التضحيات الغبيّة للوطن وللحاكم المستبدّ. . وللعائلة والأصدقاء وللحبيب.

وتصمد جزر اليابان يوميًّا في وجه أقوى الزلازل. كلّ مرّة تخرج أبراجها واقفة ويخرج أبناؤها سالمين. عندهم، يُعاد إصلاح أضرار الزلازل في بضعة أيّام، وتُعدّ الخسائر البشريّة بأرقام مقياس ريختر. . لا بقوّته. فقلّما تجاوز الضحايا عدد أصابع اليد.

صنعت اليابان معجزاتها بعقلها، وصنعنا كوارثنا جميعها بعواطفنا.

ماذا لو أعلنّا الحبّ كارثة طبيعيّة بمرتبة إعصار أو زلزال أو حرائق موسميّة! لو جرّبنا الاستعداد لدمار الفراق بتقوية عضلة قلبنا الذي صَنعَتْ سذاجته وهشاشته الأغاني العاطفيّة والأفلام المصريّة التي تربّينا عليها!

كما المباني اليابانيّة المدروس بناؤها ليتحرّك مع كلّ هزّة، علينا أن نكتسب مرونة التأقلم مع كلّ طارئ عشقيّ، والتكيّف مع الهزّات العاطفيّة وارتجاجات جدران القلب التي تنهار بها تلك الأشياء التي أثّثنا بها أحاسيسنا، واعتقدنا أنّها ثابتة ومسمّرة إلى جدران القلب إلى الأبد.

علينا أن نربّي قلبنا مع كلّ حبّ على توقّع احتمال الفراق، والتأقلم مع فكرة الفراق قبل التأقلم مع واقعه، ذلك أنّ في الفكرة يكمن شقاؤنا.

ماذا لو جرّبنا الاستعداد للحبّ بشيء من العقل؟ لو قمنا بتقوية عضلة القلب بتمارين يوميّة على الصبر على من نحبّ؟ أن نقاوم السقوط في فخاخ الذاكرة العاطفيّة التي فيها قصاصنا المستقبلي؟ أن نَدخل الحبّ بقلب من «تيفال» لا يعلق بجدرانه شيء من الماضي. أن نذهب إلى الحبّ كما نغادره دون جراح، دون أسًى، لأنّنا مصفّحون ضدّ الأوهام العاطفيّة؟ ماذا لو تعلّمنا ألاّ نحبّ دفعة واحدة، وألاّ نُعطي أنفسنا بالكامل، وأن نتعامل مع هذا الغريب لا كحبيب، بل كمحتلّ لقلبنا وجسدنا وحواسّنا؟ ألاّ يغادرنا احتمال أن يتحوّل اسمه الذي

تنتشي لسماعه حواسّنا، إلى اسم لزلزال أو إعصار يكون على يده حتفنا وهلاكنا؟

أيّتها العاشقات الساذجات، الطيّبات، الغبيّات.. ضَعْنَ هذا القول نصب أعينكنّ: «ويل لخلّ لم ير في خلّه عدوًّا».

ليشهد الأدب أنّني بلّغت!

* * *

الحبّ هو عدم حصول الرجل فورًا على ما يشتهيه

ألفريد كابوس

شبهة النسيان

أشياء تطاردها

وأخرى تُمسك بتلابيب ذاكرتك

أشياء تُلقي عليك السلام

وأخرى تُدير لك ظهرها

أشياء تودّ لو قتلتها

لكنّك كلّما صادفتها

أردتك قتيلاً

تكتبين روايات وقصائد في الحبّ، ولا يسألك أحد في من كتبتها، ولا يسألك إن كان المرء يحتاج حقًّا كلّ مرّة أن يحبّ ليكتب عن الحبّ. (لو كان نزار حيًّا لأضحكه السؤال. فالشاعر العربي الذي كتب خمسين ديوانًا في الحبّ، لم يحبّ سوى مرّات معدودة في حياته) ذلك أنّ ذكرى الحبّ أقوى أثرًا من الحبّ، لذا يتغذّى الأدب من الذاكرة لا من الحاضر.

لكنّك تقولين إنّك تكتبين كتابًا عن النسيان ويصبح السؤال «من تريدين أن تنسي»؟

لكأنّ النسيان شبهة تفوق شبهة الحبّ نفسه؛ فالحبّ سعادة. أمّا السعي إلى النسيان فاعتراف ضمني بالانكسار والبؤس العاطفي. وهي أحاسيس تُثير فضول الآخرين أكثر من خبر سعادتك.

لكنّ الاكتشاف الأهمّ، هو أنّ المتحمّسين لقراءة «وصفات للنسيان» أكثر من المعنيّين بكتاب عن الحبّ. النساء والرجال من حولي يريدون الكتاب نفسه. أوضّح للرجال «ولكنّه ليس كتابًا لكم». . . يردّون «لا يهمّ، في جميع الحالات نريده»!

كلّ من كنت أظنّهم سعداء انفضحوا بحماسهم للانخراط في حزب النسيان. ألهذا الحدّ كبير حجم البؤس العاطفي في العالم العربي؟!

لا أحد يعلن عن نفسه. الكلّ يخفي خلف قناعه جرحًا ما، خيبة ما، طعنة ما. ينتظر أن يطمئنّ إليك ليرفع قناعه ويعترف:

ما استطعت أن أنسى!

أمام هذه الجماهير الطامحة إلى النسيان، المناضلة من أجل التحرّر من استعباد الذاكرة العشقيّة، أتوقّع أن يتجاوز هذا الكتاب أهدافه العاطفيّة إلى طموحات سياسيّة مشروعة. فقد صار ضروريًّا تأسيس حزب عربي للنسيان.

سيكون حتمًا أكبر حزب قومي. فلا شرط للمنخرطين فيه سوى توقهم للشفاء من خيبات عاطفيّة.

أُراهن أن يجد هذا الحزب دعمًا من الحكّام العرب، لأنّهم سيتوقّعون أن ننسى، من جملة ما ننسى، منذ متى وبعضهم يحكمنا، وكم نهب هو وحاشيته من أموالنا، وكم عَلِقَ على يديه من دمائنا.

دعوهم يعتقدون أنّنا سننسى ذلك!

إذ إنّنا نحتاج أن نستعيد عافيتنا العاطفيّة كأمّة عربيّة عانت دومًا من قصص حبّها الفاشلة، بما في ذلك حبّها لأوطان لم تبادلها دائمًا الحبّ. حينها فقط، عندما نشفى من هشاشتنا العاطفيّة المزمنة، بسبب تاريخ طاعن في الخيبات الوجدانيّة، يمكننا مواجهتهم بما يليق بالمعركة من صلابة وصرامة. ذلك أنّه ما كان بإمكانهم الاستقواء علينا لولا أنّ الخراب في أعماقنا أضعفنا. ولأنّ قصص الحبّ الفاشلة أرّقتنا وأنهكتنا. والوضع في تفاقم.. بسبب الفضائيّات الهابطة التي وُجدت كي تشغلنا عن القضايا الكبرى وتسوّق لنا الحبّ الرخيص والعواطف البائسة، فتبقينا على ما نحن عليه من بكاء الحبيب المستبدّ... ونسيان أنواع الاستبداد الأخرى!

* * *

خلاصنا في ما يعادينا لا في ما يلائمنا

إبراهيم الكوني

طالبين النسيان

آمن أنّك ستنسى أكثر ممّا تتمنّى

ألفريد دي موسيه

بالإذن من العزيز مروان نجّار صاحب مسلسل «طالبين القرب».
إحنا «طالبين النسيان»، فهذا عصر المطالب. ثمّة من يطالب بتطبيق الاتّفاقيّات الدوليّة، وآخر بإنقاذ الكرة الأرضيّة من مخاطر الاحتباس الحراري، وثالث بوقف الحظر الاقتصادي على كوبا، ومنع الأطعمة المعدّلة جينيًّا، وإيقاف الأبحاث حول الخلايا الجذعيّة. وثمّة من يطالبك بتغيير لمبات الإضاءة إنقاذًا لمستقبل الأرض، وترشيد استهلاك المياه حفاظًا على الموارد المائيّة وحماية البيئة بعدم استعمال الأكياس البلاستيكيّة.

أمّا نحن النساء فجاهزات لترشيد استهلاكنا للبطاقات المصرفيّة، وعدم مساءلة الرجال عن هدر ثرواتنا المائيّة، والتنازل عن حصّتنا

من الأوكسيجين، على قلّتها في العالم العربي. كلّ هذا مقابل مطلب واحد:

حمايتنا من عواقب تعلّقنا الغبي بـ «كراكيب» الذاكرة العاطفيّة. نحن نطالب بالمساواة في النسيان مع الرجال.

ونقسم بأغلظ الأيمان إنّنا لن نطالب بعدها بأيّة مساواة أخرى في الأجور، أو فرص العمل.. أو الإرث، أو حتى قيادة السيّارة.

لا بدّ للعلماء المنهمكين في أبحاث غبيّة لا فائدة من ورائها أن ينكبّوا على حلّ مشكل يعني نصف سكّان الكرة الأرضيّة، بتعديل جينات الذاكرة النسائيّة، حتى يتسنّى لنا يومًا أن ننسى مثلما ينسى الرجال، ونضيء مشاعرنا بلمبات معتمدة حديثًا في الغرب، أقلّ استهلاكًا للأعصاب والطاقة، وببطّاريّات لأحاسيس لا تعمّر طويلاً.

نطالب بتطوير الأبحاث حول الخلايا الجذعيّة، والجذريّة، إن وُجدت، علّنا نعرف جذر هذه البليّة... التي تجعلنا محكومات بالوفاء لذكريات تعيش وتعشّش فينا وحدنا.

إنّه نداء نرفعه إلى العلماء. نناشدهم إيجاد علاج للحدّ من تفشّي داء الوفاء للماضي لدى إناث الجنس البشري، أو ليستنسخوا لنا ذاكرة نسائيّة مطابقة لذاكرة الأسماك، فتكون لنا آنذاك ذاكرة يتراوح عمرها بين خمسِ ثوان وثمانٍ ليس أكثر.

ذلك أنّ الوفاء مرض عضال لم يعد يُصيب على أيّامنا إلاّ الكلاب... والغبيّات من النساء!

* * *

هكذا تورّطت في هذا الكتاب:

إذا كان الحبّ يملك شفيعًا وقدّيسًا، فالنسيان يحتاج إلى آلهة. من أجل مصائب كهذه وُجدت العناية الإلٰهيّة.. ووُجد الأدب.

حين قلت لصديقتي تلك «أحبّيه كما لم تحبّ امرأة، وانسيه كما ينسى الرجال»!

صاحت «يا الله... اكتبيها»!

لكن ما كان لهذه الفكرة أن تكون شعارًا، بل نهجًا نسائيًّا تكتسبه المرأة بذكائها الذي هو وليد غباء سابق.

نصيحة بعد أخرى، وُلد من مكالماتنا الهاتفيّة ومواساتي لها ما سيصبح كتابًا. فقد وجدت أنّ ما أقوله لامرأة يستحقّ أن تأخذ علمًا به جميع النساء، بعد أن تعبتُ من نجدة حلقة الصديقات وقبيلة القارئات اللائي يعشن بالتناوب أسى الخيبات العاطفيّة.

بدأ الأمر مزحة، فقد تطوّعت كلّ واحدة بإمدادي بنصائحها وخلاصة «حكمتها».

رحت أهدي صديقتي تلك أخطائي وأخطاء النساء من حولي، أبحث في تلك الحفريّات العاطفيّة التي تراكمت خلال الأزمنة الجيولوجيّة وشكّلت مخزون السذاجة الأنثويّة عن أسباب تطابق الخيبات النسائيّة، وتشابه النماذج الرجاليّة.

عندها أصبح مطلب الصديقات أن أكتب ما سيكون «دليلاً نسائيًّا للنسيان»، خاصّة صديقتي الغالية الدكتورة هنادي ربحي، مديرة مكتب الإرادة للاستشارات والأبحاث النفسيّة في دبي، والتي كانت قد اتّصلت بي قبل خمس سنوات تدعوني إلى لقاء مع مرضاها الذين كانت تعالجهم بكتاباتي، ثمّ عندما تعرّفت عليّ احتارت في علاجي من حماقاتي.

وكنت قبل مدّة عثرت على روايتي «فوضى الحواسّ» تُباع في صيدليّة في شارع الحمراء، مع كتب الحمية وعلاج السكّري وأمراض الشرايين والقلب.

لفرط مفاجأتي اشتريتها أمام اندهاش الصيدلي. ومن جنوني رحت مساءً أقرأها عساها تشفيني من مرض نفسيّ ما، فمنذ سنوات ما عدت كاتبتها.

وبالمناسبة، إنّ العلاج بالقراءة الانتقائيّة هو إحدى أحدث طرق العلاج النفسي، حتى إنّه صدر مؤخّرًا في باريس كتاب يضمّ مئة عنوان لروايات عالميّة مقسّمة حسب احتياجات كلّ حالة نفسيّة يمرّ بها القارئ.

ذلك أنّ قراءة كتاب في غير الظرف النفسي الموافق له قد يكون فيها أذًى نفسيٌّ يعادل تناولك أدوية مضرّة بصحّتك. لذا، في قسمه الثاني، يدلّك هذا الكتاب على عناوين الروايات التي ينبغي عليك عدم قراءتها عندما تكون في حالات نفسيّة معيّنة.

يبقى أنّ العلاج المثالي لكلّ أوجاع القلب هو الضحك، وعدم أخذ الذاكرة مأخذ الجدّ.

كتبت كثيرًا من هذه الوصفات وأنا أضحك ملء قلبي، كما في تلك الجلسات الجميلة جوار المدفأة في بيت صديقتي الكبيرة بارعة، التي ترجمت أعمالي إلى الإنكليزيّة، وتبرع في قراءة أحاسيسي والتوحّد معي حزنًا وبهجة، حتى ما عدنا ندري أيّنا تترجم الأخرى. ويحدث أن تنضمّ إلينا صديقة ثالثة، امرأة بجمال وثقافة عالية وبكبرياء طاغٍ. بالمناسبة الكبرياء هي الصفة المشتركة لصديقاتي.

لكأنّي كتبت هذا الدليل أيضًا لنفسي. علّني أعود إليه وأقرأه يومًا. بل أنا التي أكره أن أقرأ كتابًا لي بعد أن يصدر (حتى لا تعذّبني الرغبة في إعادة كتابته) أجزم أنّني سأكون أوّل من يهجم عليه حال صدوره، عساني أستفيد ولو من نصيحة واحدة وردت فيه.

ذلك أنّني أَوْلى بالنصح من قارئاتي. لكن كما تقول أمّي «خلاّت راجلها ممدود وراحت تعزّي في محمود!».

إذا كانت النصيحة بجمل أكون قد أهديتكنّ لوجه الله.. ونكاية

ببعض الرجال، قافلة من الجمال.

كأنّ هذا الكتاب أعطاني وَهْمَ أن أكون طاعنة في الحكمة!

لا أطمع في غير دعواتكنّ لي بالخير، ولاحقًا بالرحمة. فأنا أعتبر هذا الكتاب صدقة جارية، وأثق أنّه سيكون أكثر كتبي قراءة وقرصنة، نظرًا لما أتوقّعه من ازدهار حاليٍّ ومستقبليٍّ للخيبات النسائيّة.. والخيانات الرجاليّة؛ وهو ما يسعدني ويؤلمني في آن.

لكون هذا «الدليل» ليس واحدًا من أعمالي التي استغرقت كتابتها ثلاث سنوات وأكثر، والتي كتبت بعض فصولها وأنا أبكي دفاعًا عن تلك القضايا القوميّة الكبرى والمفلسة التي آمنت بها!

عكس أعمالي الروائيّة، هذا الكتاب فتح شهيّتي للضحك حتى إنّي كثيرًا ما قمعتُ نزعتي للسخرية السياسيّة أو النسائيّة، كي لا يُمنع في جلّ البلاد العربيّة. فحتى قبل صدوره غيّر هذا الكتاب قدر الكثيرات من حولي. أوّلهنّ هدى الصبيّة التي دخلت حياتي كقارئة محمّلة بباقة ورد، وغادرت بيتي محمّلة بمخطوط هذا الكتاب، بعد أن تطوّعت لطباعته حبًّا بي، وطمعًا في النسيان، مكتفية به مكسبًا. فمعَ كلّ مقال كنت أبعثه لها كانت تعيد النظر في خياراتها السابقة.

أحيانًا كنت أشعر أنّني أكتب هذا الكتاب من أجلها، لا من أجل صديقتي تلك، بعد أن وُلد بيننا تواطؤ جميل لجيلين من النساء. كأنّها العاشقة الشابّة التي كنت أحتاجها لأورثها حكمة النساء جميعهنّ، كما ورّث ريلكه ويوسا خبرتهما لشعراء وكتّاب شباب.

بفضل ابتهاجها بكلّ فكرة مجنونة أحدّثها عنها، وإلحاحها كلّ يوم على أن أزوّدها بما كتبته منحتني ـ أنا المعروفة بكسلي ـ ما كان ينقصني من حماس لإنجاز هذا الكتاب في ثلاثة أشهر، مضحّية بهوس إعادة قراءة مخطوطاتي أكثر من مرّة، حدّ ملاحقة المخطوط حتى المطبعة، غير آبهة بمن أتوقّع أن يفتح هذا الكتاب شهيّتهم للتشهير بي واجدين فيه سلّمًا ذهبيًّا يختصر طريقهم إلى الشهرة. فليكن.. أتصدّق عليهم بها.

النسيان قضيّة نسائيّة أكبر من أن أتخلّى عنها خوفًا أو ترفّعًا. فما تخلّيت يومًا عن قضيّة، ممّا جعلني الكاتبة الأكثر مقروئيّة في السجون الإسرائيليّة كما العربيّة.

دومًا كنت «التاسعة» في كلّ زنزانة، كما قال لي أسير سابق هاتفني يومًا، من هاتف قام الأسرى بتهريبه إلى داخل السجن، للاتّصالات الضروريّة. (وكانوا قد حصلوا على هاتفي بعد مروري ببرنامج «خلّيك بالبيت»).

لذا، وأنا صديقة الأسرى، لا عجب إن أردت هذا الكتاب هديّة لنساء غوانتنامو الحبّ، القابعات في معتقل الذاكرة دون محاكمة، بتهمة لا يعرفها إلاّ السجّان، سجّانهنّ!

من لهنّ سواي محرّرًا ومحرّضًا!

أردته، خاصّة، تحدّيًا نسائيًّا أرفعه تجاه نفسي. بعد أن أصبح شعاري «بلى أستطيع ذلك». فيكفي أن تكسب المرأة معركتها

الأولى حتى لا يعود بإمكان أحد أن يهزمها.

هل فهمتنّ الرسالة؟

* * *

لقد قرّرت، وهذا يكفي، أن أحارب من أجل ما أريده، وأن أكون ما لا يريده الآخرون لي

أوبرا وينفري

هاتف النسيان

لا تبكينّ على الطلل وعلى الحبيب إذا رحلْ

واقطع من الرحم الذي بك في المناسبة اتّصلْ

سيّان عندك فليكن من لم يصلك ومن وصلْ

من «الوصايا المضادّة» لأبي نواس

للحبّ عيد إذن. . يحتفل به المحبّون والعشّاق، ويتبادلون فيه البطاقات والأشواق، فأين عيد النسيان سيّدتي؟

هم الذين أعدّوا لنا مسبقًا تقويمًا بأعياد السنة، في بلد يحتفل كلّ يوم بقدّيس جديد على مدار السنة. . . أليس بين قدّيسيهم الثلاثمائة والخمسة والستّين. . . قدّيس واحد يصلح للنسيان؟

ما دام الفراق هو الوجه الآخر للحبّ، والخيبة هي الوجه الآخر للعشق، لماذا لا يكون هناك عيد للنسيان يضرب فيه سُعاة البريد عن العمل، وتتوقّف فيه الخطوط الهاتفيّة، وتُمنع فيه الإذاعات من بثّ الأغاني العاطفيّة. . . ونكفّ فيه عن كتابة شعر الحبّ. . .

ذاكرة الجسد ١٩٩٣

صديقتي التي تخاف أن تنسى

شهران دون أن نلتقي. . . قرنٌ وتسعُ ثوانٍ

أيروتيكا ريتسوس

لي صديقة تعيش عذاب القطيعة العاطفيّة، مع كلّ ما يرافقها من حمّى الروح، ومن هذيان تلك الأسئلة التي لا جواب لها، لكونها تلي الانشطار العشقي الصاعق في مفاجأته.

كانت مطمئنّة إلى رجل حياتها. تملك مؤونة أربع سنوات من الذكريات، ومفكّرة بيضاء وعدها أن يملآها معًا حتى آخر يوم من عمرهما بالمشاريع الثنائيّة الجميلة. كانت الأثرى بيننا؛ فقد ملأ الرجل جيوب قلبها وعودًا حتى زهدت في كلّ شيء عداه. كان سيّدها ومولاها. كان نشرتها الجويّة وبوصلتها في الكون. فعذرنا انقطاعها عنّا نحن الصديقات.

كانت تعيش حبًّا نحسدها عليه سرًّا. ثمّ ذات صدمة بدأ عذابها، وإذ بها تمضي نحو جحيم لا نستطيع فيه شيئًا من أجلها.

راحت تموت أمامنا، لأنّ الذي وضعت خصاله فوق الرجولة، وعواطفه فوق الحبّ نفسه، وبايعته نبيًّا.. غدر بها.

دون مقدّمات، دون شروح أو توضيحات، توقّف هاتفه عن النبض بنوايا إجراميّة معلنة لاغتيالها صمتًا.

أشهر وهي معلّقة إلى مصل هاتف خارج الخدمة، صاحبه يعيش في بلاد أخرى.

لم تكن في منتصف عمر الحبّ. كانت على مشارف «أسطورة حبّ». ترتدي بغباء أنثى قميص الانتظار، ولا تريد أن يفكّ أزراره سواه. إغداق النصائح لا جدوى منه في هذه الحالة، فهي واثقة من عودته.

دليلها ذكريات و«ميسّاجات» ووعود، ولا تريد أكثر من أن يؤكّد لها أحد هذا!

في البدء كنت أطمئنها إلى أوهامها، حتى لا أزيد من ألمها، فقد كانت تسرد عليّ قصّتها كأسطورة عشقيّة بتفاصيلها المذهلة جمالاً. فكلّ عاشق يحتاج إلى صنع خرافته الشخصيّة. لكن قصّتها كانت في تفاصيلها حقًّا أقرب للخرافة.

حين زرتها أرتني الكَمّ المذهل مِن البطاقات الهاتفيّة التي تحدّث بها إليها خلال أربع سنوات. كلّ بطاقة تغطّي ثلاث ساعات من الكلام. وبإمكان عشرات البطاقات التي تحتفظ بها أن تغطّي، لو وُضعت الواحدة بجوار الأخرى، المسافة الفاصلة بين لندن وبيروت.

ليس ثمّة شكّ، لقد أحبّها هذا الرجل حقًّا.

سعدت باستنتاجي كأنّها كانت تحتاج رأيي كي تتأكّد أنّها لم تحلم ولا هي توهّمت. دبّ فيها الحماس. فتحت هاتفها تقرأ عليّ رسائله التي تعود إلى الزمن الأوّل:

«أن تختفي ثانية يعني أن أموت. إيّاك أن تختفي»

«أحتاج صوتك كي أرى»

أسألها:

ـ أيكون مات لا قدّر الله؟

تردّ بإحراج:

ـ لا.. رقمه يدقّ!

ـ لعلّه أُصيب من غير شرّ بالعمى؟

تُجيب باستحياء:

ـ لا هو دائم التواجد على الإنترنت.

تهرب من تعليقاتي المستفزّة، مستنجدةً برسائله الأخرى. تقرأ:

«أحبّك كلّ حين حتى وأنا نائم»

«كلّما نسيتني استيقظت حتى وأنا في نومي»

أسألها:

ـ ومنذ متى لم يستيقظ من سباته الشتويّ ويهاتفك؟

تتمتم:

ـ آخر مرّة كلّمني كانت في ٦ حزيران عند الساعة الرابعة عصرًا. . .

ـ أوتعتقدين أنّه يحفظ اليوم والساعة التي كلّمك فيها لآخر مرّة منذ سبعة أشهر!

ترتبك:

ـ لا أدري. .

ـ لو هاتفك، اسأليه مباشرة قبل أيّ سلام أو كلام متى بالضبط تحدّثنا معًا لآخر مرّة؟ وفي أيّ يوم من أيّ شهر كان لقاؤنا الأخير؟ إن تهرّب من الإجابة أو أخطأ في تحديد التاريخ. . اقطعي مباشرة المكالمة ولا تردّي على هاتفه ما حييت.

الحبّ لا يُقاس بعدد الساعات التي كلّمك فيها بالبطاقات الهاتفيّة، بل بالزمن الذي في انتظاره كنت تحسبين أشهره وأسابيعه وأيّامه بالساعات. وحده الوفاء يملك عدّادًا دقيقًا للوقت. إنّه النخاع الشوكي للذاكرة.

كما توقّعت، راحت تدافع عنه كما تدافع ضحيّة عن جلاّدها.

ـ ربّما كان هو أيضًا يشقى في الغياب. يحسب الوقت كما أحسبه أنا؛ فلطالما تطابق معي. لا أنسى اليوم الذي مررت فيه ترانزيت بمطار روما، فهاتفتُه من مقصورة هاتفيّة لأنّي ما كنت أملك شريحة رقم أوروبيّ. تحدّثنا ساعة ونصف الساعة في انتظار طائرتي. وكان يعزّ عليه طوال الوقت بقائي واقفة للتحدّث إليه. في آخر المكالمة فاجأني حين قال إنّه طوال المدّة كان واقفًا أيضًا، لأنّه

ما استطاع أن يجلس بينما هو يحدس أنّني أتعذّب بوقوفي للتحدّث إليه. هل تعتقدين أنّ رجلاً يبقى واقفًا ساعة ونصف الساعة في لندن لأنّ حبيبته على الطرف الآخر للخطّ في روما، مضطرّة للبقاء واقفة، هو رجل بخصال متداولة بين الرجال؟ تصوّري عندما عجبت لتصرّفه ومدحت أخلاقه العاطفيّة، أجاب: «الأخلاق كانت تقتضي ألاّ أقول لك ذلك. فأنا وقفتُ عن حبّ لأقاسمك عذابك لا لأمنّ عليك بعذابي». ذكرى هذه الحادثة بالذّات أبقتني صامدة. قلبي يقول إنّه في ذلك البيت إيّاه بجوار الهاتف نفسه، ما زال قلبه يتعذّب، واقفًا كلّ صباح عند الساعة التاسعة، لأنّه يدري أنّني أتعذّب به في مدينة ما في هذا العالم. لكن، هذه المرّة عن كبرياء هو لم يخبرني بذلك. يحدث للعشّاق أن يختلفوا ويعيشوا قطيعة قصيرة أو طويلة لكنّهم لا ينسون ولا يخونون. مثله لا يفعل.

أقاطع حماسها:

ـ إن لم يخنك فقد خان اللّهفة. إنّ رجلاً استطاع أن يعيش سبعة أشهر، كنت خلالها خارج مفكّرته، يعني أنّك ما عدت ضمن اهتماماته، عليك أن تضعيه بدورك خارج حياتك أيًّا كان جمال ذكرياتك معه.

بدت متردّدة وغير مصدّقة أنّه نسيها حقًّا. أمام صمتها المتعاطف معه أخذتُ ورقة، ورحت أحسب لها على الورق ما أراه شخصيًّا خيانة.

ـ عزيزتي.. لقد نام هذا الرجل واستيقظ خلال سبعة أشهر (عدا قيلولته اليوميّة) مئتي مرّة وعشرًا، لم يشعر خلالها لا ليلاً ولا

صباحًا، لا عند غفوته ولا عند استيقاظه، بحاجة عاشق لسماع صوتك. وتناول خلال هذه المدّة ثلاث وجبات في اليوم، أيْ ستمئة وثلاثين وجبة بالتمام والكمال، من دون أن يشعر أنّ غذاءً روحيًّا ينقصه وأنّه يحتاج أن يقتات بك ليحيا. ومرّ به أثناء ذلك صيف وخريف وشتاء، فلا فصل هزمه بحرّه ولا بثلجه فعاد ليستعين بك عليه.

صاحت:

ـ بلى، لقد ردّ على معايدتي برسالة قال فيها «لا أستعين بغيرك على النساء والبرد».

ـ ومنذ متى لم تلتقيا؟

ـ منذ ٢٠ يناير الماضي...

ـ أوتعتقدين أنّ رجلاً لم تلتقي به منذ أحد عشر شهرًا قد التحق بالدير في غيابك، وأصبح راهبًا يستعين بذكراك على النساء والبرد اللندنيّ، وأنّه منذ ذلك الحين معلّق على جدار كصورة لا امرأة عبرت أو مرّت بحياته، لا امرأة جلست إلى طاولته أو تمدّدت على سريره، أو تركت صوتها على هاتفه.. أو قاسمته على الإنترنت صباحات الضجر وليالي السهر في مدن الصقيع.

اجلسي إلى نفسك وواجهيها بهذا السؤال:

ـ لو قلت لك إنّني أثق في وفاء رجل يرفض الردّ على مكالماتي منذ سبعة أشهر ولم ألتق به منذ سنة.. أما كنت أشفقت عليّ من سذاجتي!

دمعت عيناها. وقالت:

ـ باعتقادك هل تكفي الغيرة سببًا كي يغدو رجل كهذا حبيب نساء عابرات فقط لقتل الوقت انتقامًا؟

ـ بل سيفعل ذلك لقتلك أنت بالذات داخله!

ـ ولماذا يفعل ذلك ولا امرأة ستحبّه كما أحببته؟

ـ بالذات لأنّك أحببته كما لم تحبّه امرأة.. وسيسعى لتدميرك بامرأة أخرى.. حتى لا يبقى فيك ما يقوى على حبّ رجل غيره!

لكأنّ هذه الفكرة صدمتها. عبرت عينيها غيمةٌ من الدموع ولم تقل شيئًا. مزيج من الكبرياء والغباء جعلها ترفض تصديق احتمال خيانة من تحبّ. فنحن نحكم على وفاء من نحبّ بقدر منسوب وفائنا.

ثمّ إنّ اعترافها بأنّ تلك القصّة «الأسطوريّة» انتهت لفرط المزايدة في الأذى، هو اعتراف ضمني بهدرها أربع سنوات من عمرها أيْ:

٤٨ شهرًا

١٤٦٠ يومًا

٣٥٠٤٠ ساعةً

٢,١٠٢,٤٠٠ دقيقة. من أجل لا شيء.

يا الله! أكثر من مليوني دقيقة، لم تبق منها دقيقة، ولا حتى دقّة **هاتفيّة واحدة لقول كلمة تعيد للحبّ الحياة!**

أي حبّ هذا الذي يجرفك طوفانه حين يجيء. ويقتلك ظمأً حين

يذهب. فلا يملك من أجلك قطرة وفاء للماضي تبرّر هذا الهدر وإثم نزيف الزمن السائب في عمر امرأة.

تركت لها على ورقة جردة بأرقام خساراتها في بورصة الحبّ، عساها تتعلّم ألاّ تستثمر في المشاريع الوهميّة.

فأربع سنوات في حياة امرأة أربعينيّة هي ثروة زمنيّة أغلى من أن تُستعاد.

صديقتي هذه نموذج لآلاف النساء العربيّات اللائي يقدّمن سنوات من عمرهنّ قربانًا لرجل لم يقدّم لهنّ سوى الوعود، ويرين الحبّ ارتهانًا لشخص ليس بالضرورة رهينة لهنّ بل لمزاجه وأفكاره المسبقة وعقده وتطلّعاته الشخصيّة.

رجل كالزواحف يتخلّص من جلده ومن ماضيه دون عناء. ووحدها المرأة تعيش مزدحمة بكراكيب الذاكرة. تحفظ التواريخ عن ظهر قلب، وتحتفظ بالرسائل الهاتفيّة كما لو كانت سندات ملكيّة، وتعيد استنساخها في دفاتر خاصّة بدقائقها وثوانيها كي تستعيد الزمن العشقيّ، وتباهي به أمام نفسها وأمام الحبّ. لكأنّها كانت تدري أنّها ذات يوم لن تملك إلاّ ما وثّقت من تفاصيل، دليلاً على أنّه حقًّا مرّ بحياتها.

يا للغباء. صحت بها:

ـ هذا الحبّ يتناقص كلّ يوم، وعمرك أيضًا. إنّ حبًّا مفقودًا أفضل من حبّ منقوص. اخلعي عنك حداد هذا الرجل، وخذي قرارًا بينك وبين نفسك بإنهاء هذه العلاقة. فأيًّا كان ثمن إنهائها لن

يكون أكثر من شقاء بقائك هكذا «شردودة لا مطلّقة ولا مردودة» حسب قول أمّي.

ثمّ إن لم تحسمي هذا الأمر اعلمي أنّك ستخسرينني، فما عاد مزاجي يتقبّل استكانة امرأة واستعدادها للتضحيات المجّانيّة.

في الغد هاتفتني على غير عادتها عند الساعة التاسعة صباحًا. كنت ما أزال نائمة، فأنا أسهر طويلاً للكتابة.

قالت:

ـ أهاتفك لأقول لك إنّني عملت بنصيحتك. أخذت ليلاً قرارًا بأن أنساه وأردت أن تعرفي بذلك.

ـ أما كان بإمكانك أن تزفّي لي هذا الخبر لاحقًا؟!

ردّت ضاحكة:

ـ في الواقع ما زلت أستيقظ عند الساعة إيّاها التي اعتاد أن يهاتفني فيها لسنوات.

ـ ما دمت لم تكسري داخلك الساعة البيولوجيّة لحبّه فلن يغادرك هذا الرجل. كأنّك تهاتفينني الآن لتقولي لي عكس ما تودّين قوله!

ردّت على استحياء:

ـ أعترف، ما استطعت أن أشفى من هاتف التاسعة صباحًا.. أو بالأحرى السابعة بتوقيت لندن..

ـ ما دام هو قد شُفي بإمكانك أيضًا أن تَشْفَيْ. لا تدعي الساعة

تتحكّم فيك.. لست كلب «بافلوف». اكسري هذه العادة بعادة أخرى.. كلّمي أحدًا آخر!

ـ ليس في حياتي أحد.

ـ لا أصدّق أنّ امرأةً مثلك ليس حولها أحد.

ـ لا والله..

جلستُ في سريري وقد راودتني فكرة.

قلت:

ـ ما رأيك أن أهاتفك أنا كلّ صباح عند التاسعة؟

صاحت بطفولة:

ـ وااااو... إنّها فكرة جميلة.. لا أصدّق أنّك ستستيقظين من أجلي!

ـ ليس من أجلك، من أجل النسيان. لنتفّق أوّلاً.. هاتفي لن يكون هاتف الحبّ.. سيكون هاتف النسيان. كلّ يوم سأقول لك ما فعله الرجال بنساء أخريات. ويومًا بعد آخر ستتمرّدين على قلبك حدّ كراهية هذا الرجل.

ـ لكنّني لا أريد أن أكرهه.. أريد فقط أن أنساه.

صمتت كأنّها أمام خيار ما توقّعته.

قلت:

ـ قرّري، أتودّين أن أهاتفك بتوقيته أم لا؟

لعلّها كانت تحتاج أن يدقّ هاتفها أخيرًا في ذلك التوقيت، أكثر من حاجتها إلى سماعي. ثمّ كان لديها أمل أن نأتي على ذكره. لكنّني ما كنت من الحماقة لأهاتفها كي أقع في فخّ ذكرياتها بدل أن أُنسيها إيّاه.

ردّت:

ـ يسعدني حقًّا أن تهاتفيني.. تدرين، أحبّ هذا التواطؤ النسائي..

قلت مازحة:

ـ أنت لا تدرين ماذا فعلت قبل عشرين سنة في باريس لإنقاذ شغّالتي من بين مخالب رجل!

ردّت بلهفة:

ـ احكي لي شو عملت!..

قلت:

ـ ستستمعين إلى تلك القصّة لاحقًا. سأروي لك كلّ يوم قصّة، مع الفارق أنّ قصّتي تُحكى في النهار لا في الليل. وأنّني لا أريد بها إنقاذ رأسي من شهريار.. بل الإطاحة بشهريار المعشّش في رأسك!

سأحكي لك بكلّ الكلام المباح عن عمرك المستباح باسم الحبّ.

من يومها كلّ صباح يدقّ «هاتف النسيان» في بيت صديقتي عند الساعة التاسعة.

* * *

كلّ يوم حين أستيقظ أقول

«سأنساك اليوم أيضًا»

كلّ يوم

منذ أيّام

لم يحدث أن نسيت

أن أنساك

شغّالتي العاشقة.. ووصفتي السحرية

ودّع الصبرَ محبٌّ ودّعك ذائع من سرّه ما استودعك
إن يطلْ بعدك ليلي، فلكم بتّ أشكو قصر الليل معك

ولاّدة بنت المستكفي

في الأسبوع الثاني للنسيان، لم أجد، لإنقاذ صديقتي الحمقاء من حنينها لجلاّدها، سوى أن أعرض عليها وصفة قديمة للشفاء من حبيب (أظنّني أملك براءة اختراعها) ابتكرتها قبل عشرين سنة في باريس، عندما وجدت نفسي أمام فتاة جاهزة للانتحار بسبب قسوة رجل.

«الحاجة أمّ الاختراع»، وكانت الفتاة فعلاً بحاجة إلى سند عاطفي كي لا تنهار. قلت: لأجرّب فيها الوصفة. فقد كنت أجرّب فيها أيضًا مسودّات «ذاكرة الجسد» عندما تنتهي من الأشغال المنزليّة، وأسألها كيف تجد القصّة والحوارات. وتناقشني المسكينة على قدر ثقافتها.. وعلى قدر عقلي، فمن الواضح أنّني ما كنت سويّة! حتمًا كان نزار على حقّ في ما كتبه عن «ذاكرة الجسد» حين

قال للدكتور سهيل إدريس رحمه الله «دعها تجنّ فإنّ الأعمال الإبداعيّة الكبرى لا يكتبها إلاّ مجانين»!

مذ شهد لي نزار بالجنون، ما عدت أشعر بالحرج في إشهار حماقاتي.

كانت فتاة مغربيّة رسبت في البكالوريا، لا تملك أيّة جاذبيّة، جاءتني بضفائر قرويّة وملامح جبليّة. كانت تُقيم عند قريبتها وتأتي يوميًّا لمساعدتي لبضع ساعات في أشغال البيت، وللاهتمام بالأولاد.

ذات يوم وقعت البنت في حبّ رجل سوري، لا أدري أين صادفته. كان يعمل أستاذًا في سوريا وأصبح يعمل طرّاشًا في باريس. كان الرجل يملك وسامة مشرقيّة تباهي بها. فقد كانت تحمل صورته أينما حلّت. تدريجيًّا فقدت البنت صوابها. جنّت به حبًّا وغيرة. لكنّ الرجل لم يفقد عقله. كان فقط يتسلّى «رجّال واستحلى» كما يقول اللبنانيّون.

وجدت نفسي متورّطة في قصّتها؛ فقد كانت تطلب منّي أن أكتب رسائل حبّ نيابة عنها (بعد أن اكتشفت موهبتي الأدبيّة!) بينما اكتشف الرجل لاحقًا، عندما أرته مقالاتي وصوري في المجلاّت، أنّها تعمل عند كاتبة، وأنّ الرسائل المكتوبة إليه أجمل من ساعية البريد! (والقصّة تستحقّ رواية!).

ذات يوم قرّر التخلّي عنها برغم جهدي في تجميلها وقصّ ضفائرها وإهدائها أجمل ثيابي. حتى أقسمت أمّي إنّها سحرتني. وإلاّ كيف أعفيها من الاهتمام بأطفالي الثلاثة وأكرّس وقتي

لخدمتها. وكنت أردّ أنّها لو كانت تعرف السحر لسحرت ذلك الرجل أوّلاً! ذلك أنّ حالتها أصبحت بائسة ومثيرة للشفقة حدّ تركي «ذاكرة الجسد» جانبًا، والانهماك في «كتابة» حياتها العاطفيّة.

كلّما هاتفَتْه كان يقطع الهاتف في وجهها. وإن دقّت بابه رمى عند الباب بأشيائها حتى بدأت تراودها فكرة الانتحار لمقاصصته بموتها، أو إلحاق أيّ أذى به. فقد كانت البنت بربريّة من الأطلس المغربي.. وتحبّ لأوّل مرّة بوفاء وأنفة وشراسة، أي مدجّجة بكوكتيل من العواطف القابلة للانفجار والدمار!

وصلت معها إلى اتّفاقيّة أن تهاتفني كلّما شعرت برغبة في مهاتفته، فأشتمه لها، وألعن أباه وأصيح بها «كيف تسمحين لطرّاش أن يفعل بك هذا؟ من يكون ليقطع الهاتف في وجهك؟ إنّ دخلك أكبر من دخله. وأصلك أشرف من أصله.. لو كانت له أخلاق لما تصرّف هكذا مع فتاة.. ثم أنت التي نفخته وطلبت منّي أن أكتب له رسائل ما كتبتها جورج صاند لشوبان، فراح يظنّ نفسه فهد بلاّن (كان المطرب السوري الراحل رمز الرجولة آنذاك).

أهمليه.. دعيه هو يتعذّب ويسأل عنك. ثم إنّه موسم التنزيلات. اذهبي إلى ذاك المحلّ الذي أشتري منه ثيابًا بجانب مدرسة الأولاد، واشتري ثيابًا جميلة.. حتى إذا رآك المرّة القادمة يأكل أصابعه ندامة لأنّه تركك!».

طبعًا، على الأرجح أنّ الرجل كان منهمكًا في «أكل» ضحيّة جديدة. لكنّني كنت أقول لها أيّ شيء يقوّي من عزيمتها كي تصمد وتنساه.

وحين كانت تزورني بعد ذلك في كلّ أناقتها ويصادف وجود أمّي كانت أمّي تعايرني طوال السهرة بسببها.

- شفتِ مرا تبعث خديمتها للمحلّ نفسو اللي تشري منّو ثيابها.. واش يقولوا الناس لمّا تلبسو زي بعضكم!

- إحنا في فرانسا يا أمّي حتى واحد ما على بالو بيك واش لابسة. وهذي البنت مسكينة كانت رايحة تقتل روحها!

- هذي تقتل روحها؟! تصيح أمّي، أنت اللّي تقتلي روحك. ذرك تشوفي واش راح يخرج منها «المعلّمة» متاعك!

«في ردهة روحك، ظنًّا منك أنّك تجعل من الآخرين خدمًا لك، تكون على الأرجح أنت من يتحوّل بالتدريج خادمًا. خادم من؟ خادم ماذا؟ إذًا، فابحث ابحث». يقول هنري ميشو. لكن ما كنت أملك الرغبة ولا الوقت للبحث.

كانت أمّي تصرّ على أنّي مسحورة وأعمل بدوام كامل «صانعة» عند خادمتي. أمّا زوجي فما كان ليصدّق هذه الهواتف التي أقول إنّها من الشغّالة.. فقد كانت تهاتفني من أيّ كابينة تلفون تمرّ بها لتخبرني بمستجدّات قصّتها، ولا أستطيع الاتّصال بها لاحقًا لأنّ الجوّال لم يكن قد اختُرع بعد. فأقضي ما تسع بطاقتها من وقت في الشتم حينًا والوشوشة حينًا. أتساءل الآن إن كنت يومها في كلّ قواي العقليّة، كيف لامرأة لها ثلاثة صبيان، أصغرهم عمره سنتان أن تضيف إلى واجبات أمومتها دور الأمّ تريزا.

ذلك أنّني لا أستطيع إلاّ إنقاذ المهاجرات غير الشرعيّات في

مراكب الحبّ، عندما يغرّر بهنّ أحدهم ويبعث بهنّ في مركب غير آمن للهجرة نحو أرض العشق الموعودة. ثمّ ينساهنّ في عرض البحر.

قضيت عمري في انتشال الإناث الحمقاوات من قصص الحبّ المغرقة. وما زلت في هذا الكتاب لا أفعل إلاّ هذا.

وهكذا طلبت من تلك الصديقة أن تهاتفني كلّما راودها الحنين إلى مهاتفته. فأقول لها عن الرجال ما يشفيها وينسيها ملّتهم!

* * *

الرجال تقتلهم الكراهية، والنساء يقتلهنّ الحبّ

الشاعر أوفيد

الاستيقاظ الموجع من الخدر العشقي

لا توقظوا المرأة التي تحبّ. . دعوها في أحلامها حتى لا تبكي عندما تعود إلى الواقع المرّ

مارك توين

صباح الخير. . إنّها التاسعة بتوقيت النسيان.

انتهى سباتك الشتوي عزيزتي.

قومي من تحت الردم . . قومي من حزنك قومي. افتحي نوافذ الحياة وإلاّ دخل الصقيع إلى قلبك وبقي هناك. كنت غزالة وأصبحت من دببة القطب الشمالي تنامين سبعة أشهر. بأيّة حقنة تمّ تخديرك؟ بالشغف؟ بالولع؟ الوله؟ الهيام؟ الغرام؟ الصبابة؟

تدرين كم للحبّ من اسم؟ تسعون اسمًا حسب مراتب العشق وجنونه. ستعرفين من مدّة غيبوبتك، في أيّة درجة من العشق كنت

حين خلدت إلى النوم على تلك الغيمة القطنيّة البيضاء، متوسّدة أحلامك.

ما توقّعتها ستمطر وترمي بك أرضًا من العلوّ الشاهق للأوهام. لذا ما أخذت معك، كما المظلّيّون، ما يضمن نزولك بسلامة. فالسقوط المفاجئ ما كان ضمن حساباتك. والآن قلبك لا يتوقّف عن الإصغاء لصوت ما تهشّم داخلك من أشياء سيصعب عليك ترميمها.

لا تدعي منظر الخراب يشوّه مزاجك، ويشلّ قدرتك على الوقوف. «نقع سبع مرّات ونقوم ثماني» يقول اليابانيّون. قومي. ما ينتظرك أجمل ممّا يحيط بك. اشتري أحذية لأحلامك وستصبح كلّ الطرقات إلى الفرح سالكة.

سدًى تنتظرين.

لا الحبّ يستطيع من أجلك شيئًا ولا النسيان. لا زوارق في الأفق.. فغادري مرفأ الانتظار.

هو لن يعود طالما أنت في انتظاره.

أنت لن تكسبيه إلاّ بفقدانه لك. ولن تحافظي عليه إلاّ بحرمانه منك.

ثمّة رجال لا تكسبينهم إلاّ بالخسارة. عندما ستنسينه حقًّا سيتذكّرك. ذلك أنّنا لا ننسى خساراتنا!

* * *

ألقِ أوراقك.. أقل لك.. أنت لن تربح إلاّ في الخسارة!

هنري ميشو

لا تطلبي اللّجوء العاطفي إلى السرير فهو سيسلّمك.. إلى عدوّك

وإنّي لأهوى النوم في غير حينه لعلّ لقاءً في المنام يكون

قيس لبنى

صباح الخير. . هذا أنا.

لقد أصبحت أستيقظ قبلك لأنّ لي موعدًا معك. وتبقين في السرير. . لأنّ لك موعدًا معه.

السرير ليس مكانًا آمنًا لامرأة تنشد النسيان. فلا تطلبي اللجوء العاطفي إليه. سيسلّمك إلى «عدوّك الحبيب» كما سلّم حسن الترابي كارلوس إلى فرنسا. وكما تسلّم الأنظمة العربيّة كلّ معارض يلجأ إليها ويأتمنها على حياته.

السرير كمين يقع فيه القلب النازف شوقًا، المطعون عشقًا، اعتقادًا منه أنّه ملاذ آمن لفرط حميميّته.

في الواقع، لا أخطر من حميميّته هذه عليك. أنت فيه مطوّقة بنفسك. حدودك الإقليميّة أنت، من كلّ صوب تحدّك الذكريات والمواجع والماضي. أنت طريدة ذاكرة تعتقدين الهروب منها إلى السرير.

لكنّها ستفترسك فيه لأنّك هناك، لا لتنسي من تحبّين بل لتستعيديه.. لتنفردي به.. لتبكيه.

حتى النوم سيغدر بك. فحسب آخر الأبحاث العلميّة، إحدى مهام النوم حماية الذاكرة. فالنوم يساعد الدماغ على تخزين كلّ ما يعتقد المرء أنّه نسيه خلال النهار. وهكذا يصبح النوم وسيلة يستردّ بها الدماغ.. الذكريات!

لذا قد يستيقظ البعض ووسادته مبلّلة بدموعه. لقد بكى أثناء نومه. جُرحه ظلّ مستيقظًا. أي أنّ النوم نفسه ما عاد فرصة للنسيان يقول العلماء. فـ «البشر ليسوا حقيقيين إلاّ في اللحظة التي يكونون فيها في أسرّتهم وحدهم» بحسب الكاتبة السويديّة آن ـ ماري برغلوند.

أخطر مكان عليك هو السرير؛ إنّه يغذّي حزنك ويوقظ مواجعك، ويخدعك بإيهامك أنّك تلتقين فيه بالرجل الذي ما عاد من مجال للالتقاء به في الحياة، لهذا سُمّي السرير مخدعًا!

«بنظرة خاطفة ذكريات كثيرة تستلقي على سريري» تقول عناية جابر.

غادري مخدعك حال استيقاظك. أتمنّى أن أجدك غدًا أمام

فنجان قهوة تحتسينها على شرفة أحلامك. اجلسي إلى نفسك كلّ صباح أمام الطبيعة بدل أن تجلسي إلى ذاكرتك في سرير.

هل رأيت رجلاً يلازم السرير حدادًا على امرأة؟

إنّه يقصد السرير «رفقة لوازم نسيانه». يستعين بامرأة على نسيان أخرى. في هذا سرّ شفائه؛ فالجنس عنده وصفة دواء يسهل تناوله بعد كلّ خيبة عاطفيّة.

ما دمت عاجزة عن الخيانة، أضعف الإيمان أن تغادري السرير حتى لا يكون فضاء متعته.. هو فضاء شقائك!

* * *

الجنس مجرّد إرضاء للنفس عندما لا يحصل الواحد منّا على الحبّ

غبريال غارسيا ماركيز

أيّتها الحمقاء.. الحياة تنتظرك وأنت تنتظرينه!

فإذا صحوتُ فأنت أوّل خاطري   وإذا غفا جفني فأنت الآخر

صباحك نسيان..

صدقًا، ألست أفضل هذا الصباح؟ أشهر وأنت تنامين ظَهرًا لظهرٍ مع جسدك المستلقي إلى جوارك. مع الوقت أصبحت جارة جسدك، جارة حياتك لا صاحبتها، تعيشين حياة مؤجّلة إلى حين يعود.

هكذا هي المرأة العربيّة.. تؤجّل فرحتها في انتظار السعادة. الحياة موجودة من أجلك.. بعطورها وورودها وفصولها.. ومصادفاتها.

الحياة تنتظرك وأنت تنتظرينه. السعادة تشتهيك وأنت تشتهينه. الحبّ يحبّك وأنت تحبّينه، لأنّه ألمك.

كقطّ يتوق إلى خانقه تريدينه.

عندما يتجاوز الخذلان حدّه، وينفد مخزون الصبر النسائي على سعته، عليك أن تراجعي علاقتك بالألم. فالألم ليس قدرًا؛ إنّه اختيار.

عام من الألم يكفي ويزيد، إنّه معدّل الزمن الأنثوي المهدور الذي تحتاجه امرأة للشفاء من رجل تفشّى فيها داؤه. الوعكة العاطفيّة تأخذ وقتًا أقلّ. فثمّة «حبّ» تلتقطه النساء مثل الأنفلونزا في شتاء القلب.

مثل هذا «الحبّ» ما كان مقدّرًا له أن يعيش أكثر من فصل، وما كان أهلاً لك أصلاً أن تعيشيه. الحزن عليه إذن لا يستحقّ أكثر من يوم. لكن أمام ألم الفراق الكبير عليك أن تأخذي بالحسبان أسئلة الفراق. عندما يموت لك حبيب، من الوفاء أن يبقى في قلبك حيًّا حتى تموتي، والبعض يعيش وفاءً جسديًّا وعاطفيًّا أبديًّا لمن فقد.

كما أنّه من العدل ألاّ تُبقي في قلبك أكثر من يوم، من تركك باختياره، وألاّ تحزني عليه أكثر من بضعة أيّام في أقصى الحالات. إنّه ضرب من الغباء أن تُبقي حيًّا في قلبك رجلاً ليس معنيًّا بموتك هجرًا. اسألي نفسك هل أنت واثقة أنّ على الطرف الآخر ثمّة عاشقًا ولهان قادمًا من العصور الغابرة.. يبكيك ويخلص لغيابك؟

كفى بربّك حماقة!

* * *

«اضبط ساعتك على دقّات قلبك، وسوف تتأكّد أنّ العمر لحظة»

بالروح.. بالدم.. نفديك يا نسيان!

أسقي الزهور في غيابك

ولكنّها . . ترفض أن تنمو

غازي القصيبي

صباحك ورد . .

يسعدني أن أراك تبدئين نهارك بالاعتناء بنباتات حديقتك .

لكن حذار أن تتحرّشي بشجرة الذكريات . أن تسقيها في كلّ مناسبة بالحنين والانتظار . . ثمّ تتعجّبي ألاّ يعطي النسيان وردًا .

لا يطرح النسيان وردًا في الموسم الأوّل . يحتاج إلى فصلين أو ثلاثة قبل أن يزهر . في البدء يهديك شوكه . لا تكوني على عجل ولا تقلقي؛ سيجيء فصل القطاف . فللحبّ رزنامة لا علاقة لها بمنطق الفصول .

ليس ثمّة نسيان جميل أو سريع . لا أحد بإمكانه أن يهديك النسيان قبل وقته، أو يبيعك إيّاه قبل أن يتفتّح على أغصانه . عليك

أن تقتنيه بألمك وأرقك ودموعك.

هذه هي العملة الوحيدة التي تتعامل بها الأحاسيس في مواجهة الفقدان الكبير.

ثمّ تذكّري، نحن لا ننسى إلاّ حين نريد ذلك حقًّا.

كوني صادقة في إصرارك على النسيان.

ينجح الرجال في النسيان بسرعة لأنّهم يريدونه فعلاً (لبدء علاقة جديدة) وتفشل النساء لأنّهنّ يخفنه أصلاً (لخوفهنّ من الإقدام على تجربة جديدة). على أساس «ذاكرة في اليد.. خير من نسيان على الشجرة» فالمرأة تخاف أن يطير مع النسيان آخر عصفور أمسكت به.

كلّما أحبّت، توقّعت ألاّ تهديها الحياة حبًّا بعد ذلك الحبّ. من هنا جاء هوسها بكلمة «إلى الأبد» التي يطمئنها بها الرجل إلى حين يطير.. إلى الأبد.

على النساء أن يشفين من خوفهنّ الأنثوي من المجهول. فليس الرجال أقلّ منّا خوفًا، ولا أكثر طمأنينة لما ينتظرهم. هم فقط أكثر خيانة وتنصّلاً من وعودهم. النسيان خطًى يبلغ المرء في نهايتها مشارف حبّ جديد. لكنّ بعض النساء عندما يطول بهنّ الطريق يعتدنه، لذا يفشلن في الخروج من هذه الحالة لاستغراقهنّ في الاستمتاع بالتلذّذ بألم النسيان، فيصبح الطريق لعذابه حينها ممتعًا حدّ شغلهنّ عن أيّ حبّ جديد. ذلك أنّ في تكوين المرأة جانبًا مازوشيًّا لا يوجد عند الرجل.. السادي بتكوينه.

فليكن. انتهى زمان «أنساك ده كلام/ أنساك يا سلام/ أهو ده

اللّي مش ممكن أبدًا/ ولا أفكّر فيه أبدًا».

بربّكنّ، ألا يبدو هذا الكلام سخيفًا عندما تقرأنه هكذا عاريًا من صوت أمّ كلثوم الذي، لجماله، بإمكانه إقناعنا بأيّ شيء.

كان بإمكاننا أن نصدّقه ونموت من أجله، ونخرج في مظاهرات نسائيّة حاشدة تندّد بالنسيان كأحد أوجه الإمبرياليّة، ونتّهمه بالمشاركة في المؤامرة الكبرى على المستقبل العاطفي للأمّة العربيّة، لو أنّنا رأينا الرجال يهتفون، كما يهتفون للزعماء «بالروح بالدم نفديك يا وفاء».

الذي حدث أنّهم أقنعونا، منذ عصور، أنّ النسيان ممكن جدًّا. ولا نريد سوى إشعارهم بأنّ النسيان ليس حكرًا عليهم.

* * *

لا بدّ لأحدهم أن يفطمك عن ماضيك، ويشفيك من إدمانك لذكريات تنخر في جسمك وتصيبك بترقّق الأحلام. النسيان هو الكالسيوم الوحيد الذي يقاوم هشاشة العاشق أمام الفراق.

الباب الموارب للقفص

«إذا أردت شيئًا بقوّة فأطلق سراحه، واترك له باب القفص مفتوحًا فإن عاد إليك فقد كان دائمًا لك وإن لم يعد. . . فإنّه لم يكن لك من البداية!»

رحت أهاتفها في صباحات الألم لأنقذها من سياط الذكرى.

كمن يعطي الحبّ رغيف خبز بدل أن يدعوه إلى العشاء. كنت أدري أنّ كلماتي ما كانت تشبعها تمامًا، لكن تمنحها قوت يومها من الصبر، وتغذّيها بفيتامين الصمود.

يومًا بعد يوم، بدت كأنّها تتعافى من الماضي. . أو لعلّها كانت تحاول إقناعي بذلك. لكن لا شيء ملموسًا كان قد تغيّر حقًّا في حياتها. قلّما كانت تقبل تلبية دعوات أو حضور مناسبات. كانت تعيش حدادها بجماليّة وعزلة، لكن بطمأنينة أكبر.

كنت أصيح بها يائسة «من أين يأتي الحبّ إن لم تفتحي له الباب». وكانت تردّ «بل تركت له الباب مفتوحًا».

لاحقًا أدركت أنّنا ما كنّا نحكي عن الأبواب نفسها. كنت أحكي عن باب الحياة.. وكانت تقصد باب القفص!

«أن تتركي باب القفص مفتوحًا طمعًا في عودة الطائر، أي أن تغلقي كلّ باب عداه، دون أن تعترفي بذلك لأحد.

أن تؤجّلي سعادة في يدك.. من أجل سعادة على الشجرة.

أن تختاري خسارة الحاضر كي لا تخسري احتمال حلم.

عليك، كلّ يوم، ألاّ تنسي تمامًا وألاّ تتذكري تمامًا.

ألاّ تهجري.. وألاّ تعودي.

ألاّ تهاتفيه، وأن تواصلي برغم ذلك سماع صوته فيك يقول لك بكلمات الماضي إنّه سيعود..

ألاّ تبدين مبتهجة، فلا تكوني أهلاً لقصّة عشقك.

ولا تدعي الحزن يشي بك فتصبحين موضوعًا للشفقة.

أن تعثري على المسافة اللازمة بينك وبينه في الغياب..

بينك وبين الآخرين..

بينك وبين الذكريات..

بينك وبين من يحاول أن يأتيك من باب آخر، غير باب القفص، ليشغل محلّه الشاغر في قلبك.

ألاّ تخوني من يكون قد خانك، ولا تتألّمي بوفائك له.

أن تخلصي لأسطورتك لا لبطلها. فالحبّ هو البطل.. لا ذلك الرجل!

أمام فنجان قهوة قلت لها:

ـ أن تتركي باب القفص مفتوحًا أي أن تطلقي سراح طائر الحبّ وتدخلي القفص لتقيمي مكانه. قرار عليك أن تأخذيه وحدك وأنت في كلّ قواك العقليّة وحساباتك العاطفيّة. فوحدك تعرفين أيّ طائر هذا الذي تنتظرين. أهو طائر نبيل أم عصفور من أسراب العصافير المهاجرة العابرة. تلك التي تنقر الحَبّ في أيّ كفّ تُمدّ نحوها، وتعيش على فتافيت الموائد.. صدّقيني ليست كلّ قصّة حبّ تستحقّ في أيّامنا كلّ هذه التضحيات!».

بدت مقتنعة بكلامي. تمتمت:

ـ أظنّك على حقّ.. آن لي أن أنساه.

لعلّ قلبها كان يقول آنذاك عكس ذلك!

* * *

لديّ كتاب صغير

أكتب فيه حين أنساك

كتاب ذو غلاف أسود

لم أخطّ فيه كلمة بعد

فيرناندو بيسوا

نصائح بقطيع من الجمال

من حذّرك كمن بشّرك

الإمام عليّ

هُنالك قصائد لن يوقّعها الشعراء

هُنالك ملهمون يوقّعون حياة شاعر

هُنالك كتابات أروع من كتّابها

هُنالك قصص حبّ أجمل من أصحابها

هُنالك عشّاق أخطأوا طريقهم للحبّ

هُنالك حبّ أخطأ في اختيار عشّاقه

* * *

هُنالك زمن لم يُخلق للعشق

هُنالك عُشّاق لم يُخلقوا لهذا الزمن

هُنالك حُبّ خُلق للبقاء

هُنالك حُبّ لا يُبقي على شيء

هُنالك حُبّ في شراسة الكراهية

هُنالك كراهية لا يضاهيها حبّ

هُنالك نسيان أكثر حضورًا من الذاكرة

من نصّ «مواسم لا علاقة لها بالفصول» باريس ١٩٨٦

كما لـم تحبّ امـرأة...

وحدها التي ستأتي بعدي ستنصفني

وهي تفرغ جيوب قلبك

ستكتشف.. كم كنت ثرياً بي

ادخلي الحبّ كبيرة. واخرجي منه أميرة. لأنّك كما تدخلينه ستبقين.

ارتفعي حتى لا تطال أخرى قامتك العشقيّة.

في الحبّ لا تفرّطي في شيء، بل كوني مُفرطة في كلّ شيء.

اذهبي في كلّ حالة إلى أقصاها. في التطرّف تكمن قوّتك ويخلد أثرك. إن اعتدلت أصبحت امرأة عاديّة يمكن نسيانها.. واستبدالها.

لا تحبّي... اعشقي.

لا تنفقي... أغدقي.

لا تصغري... ترفّعي.

لا تعقلي... افقدي عقلك.

لا تقيمي في قلبه... بل تفشّي فيه.

لا تتذوّقيه... بل التهميه.

لا تشوّهي شيئًا فيه... جمّليه.

لا تكوني أمامه بل خلفه.

لا تكوني حاجزه بل دافعه.

لا تكوني عذره بل غايته.

لا تكوني عشيقته بل زوجة قلبه.

لا تكوني ممحاته بل قلمه.

لا تكوني واقعه... ظلّي حلمه.

لا تكوني دائمًا سعادته... كوني أحيانًا ألمه.

لا تعدلي، كوني في الأنوثة ظلمه.

لا تَبكيه... أَبكيه.

لا تكوني متعته بل شهوته.

كوني أرقه وأميرة نومه.

لا تكوني سريره، كوني وسادته.

كوني بين النساء اسمه.

ذكرياته ومشاريع غده.

لا تكوني يده، كوني بصمته.

لا تكوني قلبه، كوني قالبه.

لا تغاري من ماضيه، فأنت مستقبله.

ولا من عائلته لأنّك قبيلته.

لا تكوني ساعته، كوني معصمه.

ولا وقته بل زمنه.

تقمّصي كلّ امرأة لها قرابة به.

وكلّ أنثى يمكن أن يحتاج إليها.

وكلّ شيء يمكن أن يلمسه.

وكلّ حيوان أليف يداعبه.

وكلّ ما تقع عليه عيناه.

كوني ابنته وشغّالته وقطّته.

ومسبحته وصابون استحمامه ومناشفه.

ومقود سيّارته وحزام أمانه.

ومصعد بنايته.

كوني مفاتيحه ومن يفتح بابه... حتى في الغياب.

كوني عباءة بيته... سجّادة صلاته.

كوني أريكة جلوسه ومسند راحته وشاشته.

كوني بيته.

كوني المرأة التي لم ير قبلها امرأة.

ولن تأتي بعدها امرأة... بل مجرّد إناث!

نصيحة:

لا تعجبي إن تمرّد عليك برغم هذا ولا تحزني. الحبّ الكبير يُخيف رجلاً ما عرف قبلك امرأة. إنّه ينسحب ليحمي رجولته من إغداق أنوثتك، وليتداوى من تلاشيه فيك. لكنّني لا أعرف رجلاً شُفي من سرطان الروح بتناوله «أسبرين» الكذب على الذات. لا أحد تعافى من حبّ كبير تقول التقارير العاطفيّة.

فلا تغاري ولا تهتمّي. ربّما مع الوقت دخلت حياته «إناث الهاتف» أو «قطط النت». ربّما مرّت به ثياب نسائيّة وأحذية بكعوب عالية وقُبَل بأحمر شفاه، وصدور وعطور وكلمات.

و«ميسّاجات» ليست كالميسّاجات، ونشوة في مذاق «غزل البنات» تمّ إعدادها من السكّر الصافي المُذاب الذي يصنع منه الباعة حلوى كلحية بيضاء قطنيّة طيّبة المذاق. لكن لا شيء يبقى منها غير الدبق.. إنّها تعلق باليدين والفم ويحتاج المرء كلّما تناولها أن يغتسل.

هو لهنّ..

إن أحببته كما لم تحبّ امرأة. لا تبكي ولا تحزني. ليسعدن به. سعادتك أنّك قصاصه المستقبليّ.

كلّما تقدّم به العمر كبرت بذكراك خساراته. ربّما وجد امرأة.. تهديه نسيانك، لكن لن يعثر على امرأة.. تهديه حبّك!

* * *

جراري مليئة بدموع نساء
أحببنك قبلي
لكنّني لا أبكي
مشغولة بملء سلال الضّحك
لامرأة ستضحك بعدي
على كلّ ما كنت فيك أخاف عليه

اصمدي!

وإذا انحطّ زمان لم تجد　　عاليًا ذا رفعة إلاّ الألم

إبراهيم ناجي

ثمّة متعة في الصمود حتى.. ألمًا.

قاومي شهوة الاستسلام لنداء الماضي. فوّتي على الحنين ما ينصبه لك من فخاخ. اصمدي كي تبقي كبيرة في عين نفسك.

الذي تخلّى عنك، أراد دهس كرامتك. فليكن، يبقى لك كبرياء النسيان، وزهو امتناعك عن الاتّصال به أيًّا كانت المناسبة. ستمرّ كلّ المناسبات وكلّ الأعياد و«عيديّتك» أنّك أفسدت عليه عيده، ما دام قد أفسد عليك الحياة بين عيدين!

أعرف صديقة أبدعت في الحالتين؛ كانت قد انفصلت عن الرجل الذي تحبّه قبل أشهر، فلم تطلبه في عيد ميلاده، رغم كونها تعرف تمامًا التاريخ بحكم السنوات التي احتفلت فيها به.

ثم في العام التالي هاتفته في المناسبة إيّاها، ولم يصدّق أن تكون تذكّرته أخيرًا.

لكنّها عكّرت عليه فرحته حين قالت ببراءة ماكرة «ما هاتفتك العام الماضي في عيد ميلادك لأنّني كنت ما زلت أحبّك وأقوم بجهد الامتناع عن الاتّصال بك. لكن، وقد انطفأت تلك الحرائق منذ ذلك الحين، أصبح بإمكاني اليوم أن أتمنّى لك من قلبي عيد ميلاد سعيدًا».

ما كانت تتمنّاه حقًّا هو إيلامه بسلاح جديد لم يتوقّعه. تركته حزينًا يتحسّر على الزمن الذي كانت تشهر عداءها له.. صمتًا!

ذلك أن الصمت في عنفه هو تعبير عن حبّ مضادّ مدفوع إلى أقصاه.. أي أنّه وجه آخر للعشق في تطرّفه. أمّا أن تتّصلي برجل عشقته يومًا لتقولي له كلامًا عاديًّا فذلك يعني أنّك أنزلته من عرشه وساويته بالآخرين.

الصمت.. كما كَسْرُ الصمت، سلاح على كلّ امرأة أن تُتقن استعماله في مواجهة الانقطاع الطويل..

إنّه درس في الصبر علينا إتقانه!

❊ ❊ ❊

سأصبر حتى يعلم الصبر أنّي صبرت على شيء أمرّ من الصبر

الإمام علي

كلّ متّهم بريء إلى أن يُشنق!

نهلك بما نعشق، نحيا بما نخاف

إبراهيم الكوني

لا ترابطي بجوار الهاتف وتربطي حياتك به. فذاك الرجل أخذ قرارًا بألاّ يهاتفك ولو متّ، على أمل أن يقتلك بسكتة هاتفيّة. دعيه يتوهّم ذلك!

إن كنت تودّين إسعاده واصلي التنكيل بنفسك. فلا هدف له إلاّ تعذيبك على جريمة وحده يعرفها. يحتاج أن يزهق روحك ليتأكّد من براءتك. إن كنت مولعة بالعشق الفاشستي ومشتقّاته أبشري!

إنّه يعدّ لك محرقة حطبها.. غباؤك.

* * *

أحبيتك.. وكأنّك آخر أحبّتي على وجه الأرض

وعذّبتني.. وكأنّني آخر أعدائك على وجه الأرض

الكاتبة الإماراتيّة شهرزاد

تفوّقي عليه حبًّا

لا أعرف قصاصًا أكبر من الحبّ

أُنسي الحاج

لا تستسلمي لشهوة الانتقام أيًّا كان غدره بك. وحدها النفوس الصغيرة تهجس بالأذى لأنّها لا تقدر إلاّ عليه. غادري حياة من أحببت كنسمة. لا تدمّري مكانًا أقمت فيه.

لا تشوّهي صيت رجل أحببته، كي حين تلتفتين خلفك بعد سنوات لا تجدين خرابًا بل حديقة. قصاصه في الورود التي ستواصلين سقيها في حديقته برغم كونك لن تريها تتفتّح. واصلي حماية بيته ولو بقلبك. تمنّي له الخير صادقة إن كان شهمًا، لن يُنسيه ما أتاه بعدك من خير.. خيرك، وسيؤذيه نبلك ويحرجه.

كوني أميرة.

دلّلي من تعرفين من أهله دون علمه. تفوّقي عليه حبًّا لتصغّريه في

عين نفسه. ارفعي سقف العطاء حتى لا تجرؤ امرأة على أن تأتي بعدك.

هل تعرفين انتقامًا أكبر من هذا؟

* * *

أحسنْ إلى من شئت تكنْ أميره

واحتجْ إلى من شئت تكنْ أسيره

الإمام عليّ

«وعزّة نفسي منعاني»

ليست المسألة كم تحبّ الشخص حين تحبّه

وإنّما كم تحبّه حين تكرهه

الممثّل آستون كوتشر

كلّما اتّسعت القطيعة تحوّل الحبّ إلى ضرب من المنازلة العاطفيّة الموجعة.

كلّ واحد يريد من خلالها ليّ ذراع الثاني، مراهنًا على أنّ الآخر لا بدّ أن تهزمه الأشواق واستبداد العادات العاطفيّة المشتركة والذكريات...

وأنّه حتمًا أوّل من سينهار ويرفع السمّاعة أو يرسل رسالة هاتفيّة. لكن غالبًا ما ينقلب السحر على العاشق. وبدل أن يقرّب البعاد المحبّين.. يفرّقهم نهائيًّا عندما يتجاوز الانفصال الأيّام والأسابيع إلى الأشهر. ويبدأ عندها كلّ واحد بالتشكيك في عواطف الآخر من أساسها، وينوب عن شوقه إليه حقده عليه.

فالغيرة تأخذ هنا مجدها، وتوسوس لكلّ واحد بما يزيد من عناده

ويشوّه صورة الآخر في قلبه ويملؤه ندمًا على ما ضاع سدًى من عمره.

وعندها تغدو لا رغبة لكلّ واحد إلاّ بالانتقام لكرامته العاطفيّة، كلٌّ حسب قناعاته وأخلاقه وإمكانيّاته، وما يرى فيه الردّ الأكثر إيلامًا للآخر. لعبة غبيّة وساديّة قد يمتدّ دمارها إلى سنوات عدّة، حسب عمق العلاقة وعمرها.

إنّه حبّ مدفوع إلى أقصاه، حدّ الدمار المشترك كنوع من التوحّد في التشظّي على طريقة كامل الشناوي:

آه منها.. أنا لم أدرك مداها آه منّي هي لم تدرك مدايا

حطّمتني مثلما حطّمتها فهي منّي وأنا منها شظايا

حبّ كهذا لا يليق بغير النفوس المريضة. لقد وُجِدَ الحبّ لنتحدّى به العالم لا لنتحدّى به من نحبّ، ووُجِدَ ليبني ويجمّل ويسند، لا ليهدّ ويبشّع ويدمّر. في الواقع كانت كلمة واحدة تكفي. كان يكفي رنّة هاتف وصوت يباغتك يقول «اشتقتك»، «ما نسيتك»، «أحتاجك». لكن لا هاتف يدقّ. والحبّ الذي وُلد وسط شلاّلات الكلمات الجميلة... يموت لأنّ كلمة واحدة تنقصه!

كلمة، بل دقّة، مجرّد دقّة هاتفيّة، عن تحدّ، بخل بها كلّ عاشق على الآخر، متناسيًا تلك الدقّة التي قد تأتي في أيّة لحظة لتفرّقهما إلى الأبد.. دقّة الموت.

* * *

في كلّ مرّة تنسى إنّما هو الموت ما تتذكّر وأنت تنسى

موريس بلانشو

«ليفتينغ» النسيان...

الحبّ هو أفضل عمليّة شدّ وجه. لكن عمومًا من الأسهل العثور على جرّاح تجميل من العثور على رجل يستحقّ الحبّ

الممثّلة الفرنسيّة إيمانويل بيار

إن كان الحبّ هو أفضل عمليّة شدّ وجه، فإنّ أفضل كريم ضدّ التجاعيد هو النسيان.

لا تدعي الفقدان ينكتب بؤسًا وتجاعيد على وجهك.

فالخسارة العاطفيّة تظهر أوّل ما تظهر على وجه المرأة. مهما تجمّلت ستشي بك الملامح المتعبة. العيون التي لم تنم. الخدود التي كانت نضرة ومرّت بها سواقي الدموع. الرموش التي كانت ساحرة وجارحة وانكسرت وذبلت لفرط بكائك السرّي وانهطالك الداخلي المتواصل.

أخرجي هذا الرجل أوّلاً من وجهك. يجب ألاّ تريه في المرآة عندما تقفين أمامها في الصباح.

فبشاعته داخلك، وذلك الكمّ من الأذى الذي ألحقه بك، سيتحوّل إلى أحاسيس قبيحة وضارّة تشغل كلّ مكان كان يحتلّه في جسدك. سيعبر وحلُه شرايينك وكريات دمك وينتهي في ملامح وجهك.

لا تدفعي من جمالك ونضارتك.. ثمن خروج هذا الرجل من حياتك. فهو لم يدفع هذه «القيمة المضافة» للفراق. لا ثمنًا ولا زمنًا. حداده عليك سيكون قصيرًا. فلو كان طويلاً وموجعًا ومكلفًا لما تخلّى عنك.

* * *

لا يجب دائمًا قلب الصفحة، أحيانًا ينبغي تمزيقها

مالك حدّاد

ماذا هو فاعل الآن؟

عشت معه

لأرى

كيف يحيا بدوني

هلا محمّد

لا أكثر أذى من هذا السؤال.

كلّما راودك نحرت نفسك بسكّين غير صالحة للذبح. إنّها تقتل في الدقيقة مليون مرّة. دمارها يعادل القنبلة الذريّة التي ألقتها أميركا على هيروشيما فمسحتها عن وجه الأرض. انتحارك يتكرّر صباحًا حال استيقاظك وليلاً قبل نومك، وفي نهايات اليوم وفي نهايات الأسبوع.

في المناسبات وفي عطل الأعياد، عندما تمطر وحين تثلج، وحين ترتفع حرارة الطقس وتتفتّح مباهج الحياة. لكأنّ الرزنامة

والطبيعة تآمرتا عليك، لخلق حاجة لديه لوجود امرأة. في كلّ شيء وفي كلّ مناسبة ترين فرصة لخيانته لك.

ذلك أنّك تملكين مرجعًا ودليلاً لعاداته من خلال ذكرياتك معه. واثقة تمامًا أنّه، في المناسبات إيّاها، سيكرّر لو استطاع كلّ شيء بحذافيره وتفاصيله.. فالرجل ابن عاداته.

أطمئنكِ أنّه سيفعل. وإن لم يخنك بعد فليس وفاءً لك، بل خوفًا على نفسه من الأمراض وعواقب المغامرات. إنّه فقط يبحث عن مرفأ آمن لمركبه. وذات يوم ستنهار مقاومته. إنّه حيوان جريح يسهل اصطياده. تشتمّه النساء على بعد كيلومترات. فالعثور على رجل بقلب منكسر غنيمة نسائيّة. مواساته قد تأخذ سنوات، ذلك أنّ «الطريدة تسهر على صيّادها» حسب طلال سلمان. وسواءٌ أكان الصائد أو الطريدة، هو يحتاج إلى من يطمئنه إلى رجولته بعدك. لذا سينتهي عند نساء المصادفات، فلا صبر له لانتظار الحبّ.

ولأنّه يصعب على رجل أن ينتقل من حبّ كبير إلى مغامرة صغيرة، دون أن يتلوّث أو يصغر أمام نفسه، سيذهب حدّ التوهّم أنّه عاشق. سيجد أكثر من ذريعة ليبرّر لنفسه ما أقدم عليه. سيخوّنك ليبرّئ ضميره، ويشوّهك ليجمّل نفسه، وسيقاطعك هاتفيًّا كما لو كنت بضاعة إسرائيليّة.. أو زبدة هولنديّة، ويؤسّس لجان مقاطعة ضمن الأصدقاء المشتركين لدعم موقفه المعادي لك، استنادًا لما سيرويه عنك ولا تملكين إمكانيّة الردّ عليه.

في الواقع، ما عاد لديه صوت يواجهك به. فحتى صوته قد خانك!

نصيحة:

توقّفي عن تعذيب نفسك بسؤال «ماذا تراه فاعلاً الآن؟».

فكّري معي قليلاً: ما هو أقصى شيء يمكن في رأيك أن يفعله؟

ليفعل! بربّك دعيه يفعل!

فكّري في كلّ ما لن يستطيع فعله ولا امتلاكه بعد الآن، وسيصنع تعاسته. كأن يكون هو ذاته، ببوحه وانكساراته، ولحظات ضعفه، وصدقه وتجلّياته. ألاّ يحتاج إلى جهد التمثيل ليكون «فتى الشاشة الأوّل» كلّ حين، وفي كلّ اختبارات الرجولة.

أن يحظى بسعادة ضمّك إلى صدره حتى آخر يوم من عمره، ويغدو ملكًا على العالم. لكن وقد خسر عرشه، لن يكون بإمكانه حتى المباهاة بحبّك له، ولو بينه وبين نفسه، وقد أصبحت لغيره.

* * *

الليلة أستطيع كتابة الأبيات الأشدّ حزناً

أن أفكّر أنّها ليست معي

أن أحسّ أنّني أضعتها

أن أصغي إلى اللّيل الهائل

الهائل أكثر في غيابها (. . .)

الحبّ قصير الأمد كثيرًا

والنسيان طويل طويل

ذلك لأنّني في ليل كهذا ضممتها بين ذراعيّ

وروحي ليست ترضى بفقدانها

بابلو نيرودا

من تنادين مات

عندي بعض الوقت

دعني أتأمّل غروب خطاك

عندما يوليني الحبّ ظهره

دعني أُنصت إلى صخب غيابك

في هذه اللّحظة الرائعة للأفول

عندما يُعلن الهاتف موتك

أمام أوّل رسالة تبعثينها ولا تتلقّين عليها جوابًا توقّفي نهائيًّا عن المراسلة.

إنّ الانقطاع التامّ أخفّ على العاشق من رسائل يقابلها الصمت، فالصمت مساحة للتأويلات التي قد تذهب بك في كلّ الاتّجاهات.

وستخطئين حتمًا في تفسير صمت الطرف الآخر؛ فبعض الصمت عتاب أو إهانة... وآخر حبّ... وثالث حبّ مضادّ... لكن أيًّا كان فهو يفسد ويغيّر صورة الآخر في قلبك وطريقة إحساسك به.

كلّما طال الصمت تشوّه الحبيب وأصبح كائنًا غريبًا عنك، ونابت عن صوته مرارة تقتل كلّ ما كان حلوًا بينكما. وأيًّا كانت الرسالة التي كان يريد إيصالها لك في البدء بصمته فلن تصلك إلاّ مشوّهة. إنّها صورة عنه!

في إحدى رسائله، يحذّر فرويد الشابّ خطيبته من عواقب عدم ردّها على رسائله وانعكاس هذا على مستقبل حبّهما: «لا أريد أن تبقى رسائلي دون جواب، وسأتوقّف فورًا عن الكتابة لك إن لم تجيبي على رسائلي. تؤدّي المناجاة المستمرّة للمعشوق، التي لا تلقى منه تغذية أو تصويبًا، إلى أفكار خاطئة تطال العلاقات المتبادلة، وتجعلنا غريبين، الواحد منّا عن الآخر، عند تجدّد اللقاء، وعندها نجد الأشياء مختلفة عمّا كنّا نتصوّرها، دون التأكّد من ذلك».

الصمت هو بداية الاغتراب بين عاشقين كانا لفرط انصهارهما غرباء عن العالم، مكتفيين بذاتهما، وأصبحا بحكم الانقطاع غرباء، أحدهما عن الآخر. إنّها فاجعة.

ستكون صدمتك أقلّ إن أخذت علمًا بها باكرًا.

غير أنّ هذا غالبًا ما يحدث متأخّرًا، لأنّ المرأة ستواصل محاولة إنقاذ الحبّ ولو بالتواصل المتقطّع.

نصيحة:

برغم ذلك لا تفتحي قلبك (وهاتفك) فورًا لحبّ جديد. خذي

الوقت الكافي لتأمّل جثّة ذلك الحبّ «الكبير» وهي تتحلّل فيك وحولك. ستتألّمين، لكن ستشفين بطريقة أفضل.

كلّ مساء تأمّلي مشهد غروب العواطف وقُرص الحبّ وهو يغرق بحمرته الدامية في بحر أوجاعك.

غدًا من المكان نفسه ستطلع الشمس؛ ذلك أنّها مثلما تغرب بداخلك ستشرق الشمس منك.

* * *

الغروب هو ظاهرة ذهنيّة قبل كلّ شيء

فرناندو بيسوا

دعيه يجرّب!

تريد أن تعود إلى شبابك.. اقترف الحماقات نفسها!

لأنّنا لسنا الصبّوحة، نواجه كنساء عربيّات حاجزًا نفسيًّا كبيرًا يجعلنا، أيًّا كان عمرنا، نزهد في الشباب من الرجال ونهجس بآخرين لا أمل يُرجى من شعرهم الرمادي.

ذلك أنّ المرأة العربيّة، مثل الشعوب العربيّة، تربّت على الحاكم الأب ولم تعرف للرجولة رمزًا إلاّ حكّامًا شابوا على الكرسيّ.

لذا لا تتصوّر نفسها تحبّ رجلاً أصغر عمرًا من أبيها الحاكم، ولا تفهم أنّ نساءً في كلّ قواهنّ العقليّة صوّتن في أميركا وروسيا على حكّام في فتوّة أوباما وميدفيديف. كيف أنّ نساء ينتمين إلى بلدين هما أعظم قوّتين في العالم تجرّأن على هجر مخدع التاريخ وارتمين في أحضان فتيان السياسة؟

بربّكن، ألا تجدن هذا الرجل الممشوق كحصان أسود، بحسب برلسكوني، «الوسيم اليافع مكتسب سمرة الشمس» رجلاً «سكسي»

وهو يقفز مهرولاً إلى المنصّة؟ هل رأيتنّ حاكمًا عربيًّا يهرول هكذا؟ لا تسألن أنفسكنّ لماذا!

وذاك الفتى الروسي الرشيق الخطى «الذي يمشي ملكًا» حسب أمّ كلثوم، ألا تجدنه رجلاً مغريًا في طلّته وخبث ابتسامته!

بعضنا عن مبدأ وأخريات عن عقدة، زهدن في رجال يصغرونهنّ ولو بعام. فعندما لا نعاني من عقدة الأمومة.. نعاني من عقدة الأب! وأحيانًا نحمل العقدتين معًا دليلاً على فائض عروبتنا، وأنوثتنا (زيادة الخير.. خيرين).

عكس نساء الأرض، المرأة العربيّة التي تربّت في مجتمع أبويّ لا تريد فتيانًا ولا شبابًا، تريد رجلاً خارجًا من كتب التاريخ.

لكنّها تعثر على رجل خارج من العيادات الطبيّة، بحكم أنّها تريده رصينًا وناضجًا بشعره الرمادي وهمومه الوجوديّة.

غير أنّ الرجل في خريف العمر يحتاج إلى حبّ أقلّ وإلى كذب أكثر. ينهكه «الحبّ الكبير» الذي تهجس به النساء على طريقة المسلسلات التركيّة. نُريد «مهنّد» و«يحيى» كنموذج لرجال يبقون عشّاقًا أوفياء حتى آخر حلقة من المسلسل.

بينما اكتسب الرجل مزاجًا «مكسيكيًّا» قادمًا من مسلسلات لا يُعرف فيها من ابن من؟ ولا ممّن حبلت الشغّالة!

ما من شكّ لقد التقط «أنفلوانزا الخنازير» من المسلسلات المكسيكيّة. وعلاجه في حَجْر صحّي لا يشاهد خلاله سوى المسلسلات التركيّة حتى يستعيد صوابه!

لا تنسي أنّه في هذا العمر غالبًا ما يعاني الرجل من مرض القلب، ومن ضغط الدم ومن مرض السكّري والروماتيزم والكولسترول، ومن القصور الكلوي ومشاكل في النظر، ومن كآبة منتصف العمر.. ومن أمراض رجاليّة وقانا الله شرّها.

لكنّه بين جرعتيْ دواء، وبين الأقراص البيضاء وتلك (الزرقاء) يحتاج إلى الوقوع في الحبّ كلّ يوم. فهو يفضّل على حبّ كبير، حبًّا بالتقسيط المريح، لاعتقاده أنّه مع كلّ قصّة حبّ يقع في شبابه!

في الواقع، حسب نزار «يسقط الرجل في أوّل حفرة نسائيّة تصادفه، إنّ تاريخ الرجل هو تاريخ السقوط في الثقوب».

بعض الرجال يسمّون «المطبّات العاطفيّة» حبًّا، مراوغةً منهم للموت والشيخوخة وخوفًا من حفرة المطبّ الأخير. في الحالتين لا مفرّ من المطبّ.

كان الصديق صالح العزّاز رحمه الله يقول «من تمسّك بأذناب البقر رمين به في الحفر»!

دعيه إذن للبقر، أعني البقرات «الفاضلات»، «الشريفات»، «الطاهرات».

غدًا... (وغدًا لناظره قريب) عندما يسقط هذا المخلوق في حفرة، وهو مثل ذلك البرغوث ـ المعروف بالتصاقه بالبقر بالذات ـ ينطّ من بقرة إلى أخرى، سيذكرك بالخير وهو في قاع البئر.

حينها سيتنبّه وقد خانته رجلاه عند محاولة الصعود، أنّه تجاوز عمر الجنون. وما عادت تفيد معه أيّة أدوية ولا تعاويذ سحريّة، وأن

لا امرأة غيرك كانت قادرة على انتشاله من قاع العمر.

* * *

نشتهي دومًا الأمور الأخرى، اليوم المقبل، الفصل الجديد، وما هذه إلاّ شهوة الموت

سيلفيا بلاث

من يسقط في النهر.. يتمسّك بالأفعى

«بين اللحظة التي تسبق الافتراس وغفلة الضحيّة مساحة من الهواجس لا يعرف مداها إلاّ الرجال»

لا تستعيني لحظة سقوطك في هاوية الفراق بأوّل رجل يصادفك، ويُعير حزنك أذنًا صاغيةً.

إنّها أكبر الفخاخ التي يقع فيها الرجال، وأغلاها تكلفة. فامرأة تصغي إلى أحزان رجل هي في منتصف طريقها إلى قلبه، وسينتهي به الأمر إلى تسليمها قلبه معتقدًا أنّها.. أمّه!

ما يكاد يراها ـ سبحان الله ـ حتى تُحلّ عقدة لسانه ويتدفّق سيل أحزانه.

سيحكي لها عن قصّة حياته، ويبوح لها بأسراره، مذ طفولته وعذاباته الأولى، وصولاً إلى آخر قصّة توّجتها غبيّة قبلها. تلك التي سبقتها إليه، فقد قصدها لتلبّي حاجته لامرأة تنصت إلى بوحه كما لو كانت طبيبًا نفسيًّا. لكن، وهي تعطيه أذنها، تكون قد استولت على

كلّ أعضائه. ولن يقوم بجردة لخساراته إلاّ بعد فوات الأوان!

اهتمامها به يعميه عن طرح الأسئلة. الأجوبة سيكتشفها لاحقًا. عندما يستيقظ من تخديرها ويحتاج امرأة أخرى يشكو لها ما حلّ به!

أنت منهكة وعلى مشارف الغرق. ولن تميّزي بين الأفعى وخشبة الخلاص.

ثمّة أفاعٍ وتماسيح تنتظر في النهر سقوط امرأة لا تحسن العوم!

أنت دون مناعة عاطفيّة. «تلتقطين حبًّا» كما تلتقطين رشحًا أو أنفلوانزا.

حاذري الوقوع في ما يحدث للرجال الخارجين لتوّهم من خيبة عاطفيّة. إنّهم الطريدة الأسهل. دومًا يقعون في شباك أوّل امرأة تحنُو عليهم، هربًا من امرأة قسوا عليها. فيسلّمونها مستبشرين كلّ ما ظنّوا أنّهم أنقذوه من المرأة الأولى. فتنتقم الثانية للأولى... ولو بعد حين، وفي هذا يا عزيزاتي عزاؤنا ودرس لنا!

* * *

يجب استغلال أكبر عدد من النساء الغبيّات لنسيان امرأة ذكيّة

ميشيل أوديار

الوفاء في عتمة الغياب

لا تحسبوا نأيكم عنّا يغيّرنا   إن طالما غيّر النأي المحبّينا

والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً   منكم، ولا انصرفت عنكم أمانينا

ابن زيدون

أثناء الغياب الطويل، وأنت في عتمة الأسئلة، ستنحازين إلى الإخلاص لحبيب تراهنين على عودته، وتريدين أن تحتفظي له ساعة اللقاء بشهقة أنوثة، زهدَتْ في مباهج الدنيا في انتظاره.

الوفاء مكلف، وحدك تحدّدين ثمنه؛ إذ لا أحد يدري كم دفعت وماذا رفضت وكم انتظرت، وهل الذي انتظرته أهل للثمن.

ضعي في الاعتبار خساراتك، واعلمي أنّ ما تكسبينه من إخلاصك تأخذين مكافأته من عزّة نفسك أوّلاً، من زهوك بعفّتك؛ فالعفّة زينة المرأة، والوفاء تاج الحبّ.

لا تنتظري امتنانًا من حبيب، فقد تفاجئين بعكس ما تتوقّعين. قد يشكّ فيك من أخلصت له كعمياء، وقد يثق آخر في امرأة خانته بذكاء.

الوفاء على أيّامنا «شطارة»!

فالعجيب حقًّا، بسبب معاناته من عقدة الدّيك العربي، يطمئنّ الرجل إلى النساء الكاذبات. إنّه يصدّق كلّ ما يودّ سماعه من امرأة، لأنّه يحتاج أن يسمع تلك الأكاذيب بالذات.

كلّما ازدادت ألاعيبها ازداد وثوقًا بها. إنّه لا يكون في حالة استنفار إلاّ مع المرأة الصادقة. صدقها يوقظ شكوكه عن تذاكٍ، فيتحوّل إلى مدقّق ومحقّق، واثقًا أنّ ما لم تقله أعظم.

في هذا التذاكي بالذات، كثيرًا ما يخسر الرجل المرأة التي تحبّه، ليسلّم نفسه لمن تضحك عليه.

* * *

«كلّما زاد إيمانك بذكائك سهل على المرأة أن تخدعك»

بيرون

صلّي.. ففي سجود قلبك نسيانه

«من كان الله معه فما فقد أحدًا

ومن كان الله عليه فما بقي له أحد»

السلام الروحي يأتي قبل الهناء العاطفي، فهو أهمّ من الحبّ. كلّ عاطفة لا تؤمّن لك هذا السلام هي عاطفة تحمل في كينونتها مشروع دمارك.

أمام كلّ المشاكل العاطفيّة أو النفسيّة تحصّني بالإيمان، وجاهدي الحزن بالتقوى. بقدر إيمانك يسهل خروجك من محن القلب وفوزك بنعمة النسيان؛ لأنّ الإيمان يضعك في مكانة فوقيّة يصغر أمامها ظلم البشر.

عليك بالصلاة؛ إن صلّيت صلاة يحضر فيها قلبك فسيغيب عن فكرك أيّ أحد وأيّ شيء عدا الله، وتكونين قد تجاوزت النسيان إلى الطمأنينة؛ وهي أعلى مراتب السعادة النفسيّة. «ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب».

كان مسلم بن يسار في المسجد فانهدّت طائفة من المسجد، فقام

الناس ولم يشعر أنّ أسطوانة المسجد قد انهدّت. وكان يقول لأهله إذا دخل في صلاته «تحدّثوا فلست أسمع حديثكم».

وقد بلغ من زهد يعقوب الحضرمي أن سُرق رداؤه عن كتفه وهو في الصلاة، ورُدّ إليه ولم يشعر.

أطيلي صلاتك حتى لا تعودي تنتبهي إلى من سرق قلبك، إن كان أخذه.. أم ردّه.

كلّما أقبلت على الله خاشعة صَغُرَ كلّ شيء حولك وفي قلبك. فكلّ تكبيرة بين يدي الله تُعيد ما عداه إلى حجمه الأصغر، تُذكّرك أن لا جبّار إلاّ الله، وأنّ كلّ رجل متجبّر، حتى في حبّه، هو رجل قليل الإيمان متكبّر. فالمؤمن رحوم حنون بطبعه لأنّه يخاف الله.

ابكي نفسك إلى الله وأنت بين يديه، ولا تبكي في حضرة رجل يخال نفسه إلٰهًا، يتحكّم بحياتك وموتك، ويمنّ عليك بالسعادة والشقاء متى شاء.

البكاء بين يدي الله تقوى والشكوى لغيره مذلّة. هل فكّرت يومًا أنّك غالية على الله؟

اسعدي بكلّ موعد صلاة. إنّ الله بجلاله ينتظرك خمس مرّات في اليوم. وثمّة مخلوق بشري يدبّ على الأرض يبخل عليك بصوته وبكلمة طيّبة.

ما حاجتك إلى «صدقة» هاتفيّة من رجل. إن كانت المآذن ترفع

أذانها من أجلك، وتقول لك خمس مرّات في اليوم إن ربّ هذا الكون ينتظرك ويحبّك.

* * *

«لقد حرّرني الله فليس لأحد أن يأسرني»

اختبري بتقواه... أخلاق قلبه

«يُعرف موت القلب بترك الطاعة، وإدمان الذنوب، وعدم المبالاة بسوء الذكر، والأمن من مكر الله»

ليست مظاهر الإيمان دليل تقوى. اكتسبي حسّ التمييز بين رجل تقي وآخر واجِهَتُه الإيمان. ضعي الرجل الذي يعنيك أمره تحت اختبارات تشي بسريرته.

لا تطمئنّي إلى رجل انصرف عن طاعة الله مأخوذًا بدنياه. إنّ من لا يعترف بفضل الله عليه لن يعترف بجميلك.

ومن لا يستحِ من ملاقاة الله مذنبًا، سيُذنب في حقّك دون شعور بالذنب.

ومن ترك صلاته وصيامه بذرائع واهية، وقد تربّى عليها، سيعثر حين يشاء على الذرائع التي يحتاجها لتركك.

ومن لا يَرَ أبعد من حياته ولا يحسب للآخرة حسابًا، هو في

الحبّ لا يرى أبعد من لحظته، ولن يصدق في التزامه معك أبعد من يومه.

ومن نسي أنّ الله يراه، سينسى أن يرى دموعك حين تبكين ظلمه.

ومن لم يعتد التضرّع لله طلبًا للغفران، لن تُجدي معه عند الحاجة تضرّعاتك.

ومن لم يُغالب كبرياءه عن إيمان سيطغى، ويغدو التجنّي عقيدته.

ومن لم يُطمئن الإيمان قلبه، سيسوء ظنّه، ويسودّ باطنه، ويسكن الوسواس قلبه ولن تعرفي معه الأمان.

ومن لم يزيّنه بهاء التقوى ستشوّهه كلّ زينة عداه، وسيشوّهك في آخر المطاف كي لا ينفضح بك.

إنّه رجل مات قلبه فلا تودعي حبّك لحدًا، وتعجبي عند الفراق ألاّ يتناهى منه إلى سمعك سوى صمت القبور.

وصفات لنسيان رجل

إن كان الحبّ من ذهب

فالنسيان من ألماس

ثمّة رجال يثرونك بخسارتهم

ما خنتك

لكنّي رحت أخون الزمان بعدك

أعصى عادة العيش بإذنك

أنسى انتظاري لك

فرحتي حين يهلّ رقمك

ازدحام هاتفي بك

* * *

مذ افترقنا

ما عاد الأمر يعنيني

سيّان عندي إن غدرت أو وفيت

يكفيني يا سيّد الحرائق

أنّك خنت اللهفة

وأطفأت جمر الدقائق

* * *

ما خنتك.. لكن خانك حبري

مذ قرّرت ألاّ أكتبك

فقط نسيت أن أعيش بتوقيتك

ما عدت أذكر

كم من المطارات حطّ قلبي بها

دون علمك

من نصّ «أكبر الخيانات النسيان»

ديسمبر ٢٠٠٦

ابعدي عن البحر.. وغنّي لُو!

ها هو ذا البحر

بعيونه الزجاجيّة المستديرة

تلك التي

خُلقت للبكاء

فما الذي أوصلك إلى هنا؟

دمعتان أمام جدار من الموج أنت

وكلّ البكاء على كتف البحر عبث

تفرّجي عليه من شرفتك المسائيّة

وتعلّمي أن تكتفي بزرقة الاشتهاء!

ها قد ركبت رأسك وقرّرت النسيان. . . برافو عليك يا «أخت الرجال»!

إن أردت الوصول إلى برّ الأمان لا تغادري البرّ أصلاً. ابقي على سطح الأشياء. لأنّك كلّما ذهبت عمقًا، أعطيت المشاعر فرصةً

للفتك بك. وفتحت نوافذ تطلّ على مزيد من الذكرى.

تريدين أن تنسي، تمدّدي على الشاطئ بعد أن تحمي بشرتك بكريم واقٍ من الأشعّة فوق البنفسجيّة للحنين. (جدّدي وضع الكريم كلّ ساعتين حسب نصيحة أطبّاء الجلد. فالحنين قد يخترق مسامّك من حيث لا تدرين، ذلك أنّ من تحبّين ملتصق بجلدك وهو ما لم تحسبي له حسابًا. فكلّ الأغاني العربيّة كانت تؤكّد أنّ مكانه في قلبك).

خطأ عاطفي جغرافي آخر وقع العرب في فخّه. ولو توفّق العرب في تحديد المواقع الاستراتجيّة لما كنّا خسرنا تلك الحروب!

ولأنّك، يا وليّة، لست قدّ المعارك المصيريّة، اكتفي بالتمدّد على الشاطئ والتفرّج على البحر، وأنت تحت شمسيّتك الزاهية الألوان؛ ألوانها الزاهية جزء من علاجك النفسي، وكذلك كرسي الاستلقاء بوسائده المريحة.

لا تبحري بذريعة النسيان نحو الماضي، بحثًا في جثث البواخر الغارقة عن ذكرياتك الجميلة.

في ذلك العالم السفلي المعتم للمشاعر قد تفاجئك كائنات بحريّة مفترسة تتربّص بنزولك دون زوّادة الأكسجين نحو الأسفل... سيحلّ بك ما حلّ بنزار..

فيأخذك الموج نحو الأعماق، وتصيحين «إنّي أتنفّس تحت الماء.. إنّي أغرق.. أغرق.. أغرق..» ولا أحد سيستطيع من أجلك شيئًا.

لا صوت لمن يغرق.

واللّي غرق غرق واللّي هرب هرب!

نصيحة:

لقد هرب. لكن لم يأخذ معه الذكريات.

إنّها قصاصك الثاني. ستتشبّثين بها لكونها كلّ ما بقي لك منه.

خطأ. عليك الآن إنقاذ حياتك التي أراد تدميرها.

وفي أحسن النوايا هو ليس معنيًّا بخرابها بعده. كفاك إذن غوصًا، بحثًا عن غنيمة ما يمكن إنقاذها من الماضي. عندما تعثرين داخل باخرة الحبّ الغارقة على صندوق الذكريات الثمينة التي أضعتها تكونين قد عثرت على أسلحة دمارك الشامل. فهلاكك بعد الآن في أن تعيشي على الماضي رهينة رجل يعيش أثناء ذلك حاضره.

ما دمت حيّة ستكون لك ذكريات. جمّلي إذن ذكرياتك القادمة بالإصرار على الحياة.

فما الذكريات إلاّ تراكم الحاضر! كما يقول رينيه شار.

* * *

كسمكة حمراء

أدور دون توقّف

في «أكواريوم» حبّك

لا بوصلة لي
وكلّ هذا الدمع الغبي
لسمكة تبكي في حضرة البحر
حتمًا هو لا يلحظ دمعها
إنّه مستودع للدموع

تجنّبي الأغاني العاطفيّة [إلاّ إن كنت مازوشيّة!]

«قل لي ٧ أغان تحبّها وأنا أقصّ عليك حياتك وأبكيك»

هي بالضبط هذه الأغاني السبع التي عليك أن تنسيها في فترة نقاهتك العاطفيّة. لن تجدي أيّة سلوى أو مواساة في الأغاني التي تمجّد الحبّ، أو تلك التي تشكو غدر الحبيب، خاصةً أنّ ثمّة أمرًا عجيبًا حقًّا: عندما تكونين عاشقة أو تكونين في حالة فراق (وحالتك حالة!) تبدو كلّ الأغاني، حتى الأكثر سذاجة، وكأنّها كُتبت لك ولا تحكي إلاّ قصّتك أنت بالذات. وعلى غباء كلماتها.. التي ما كنت تنتبهين لها في الماضي.. ستُبكيك!

إن لم تكوني مازوشيّة فأقلعي عن جَلْدِ نفسك ورفع ضغطك بما هبّ ودبّ من أغاني الحبّ.

أمّا قمّة الغباء فالاستماع إلى الأغاني التي كنتما تستمعان إليها معًا في ذلك الزمن الجميل. ما أدراك يا حمقاء، ربّما كان يقضي وقتًا جميلاً مع غيرك، بينما فتحت أنت في بيتك «حسينيّة» لتبكيه!

نصيحة:

استمعي إلى الموسيقى، الموسيقى الراقية الجميلة والمبتهجة؛ فوحدها الموسيقى تجعلنا حزينين بشكل أفضل.

جرّبي:

الدانوب الأزرق لـ «شتراوس»

البوليرو لرافيل

معزوفات كليدرمان على البيانو

سيمفونيّات شوبان المبهجة

احزني بحضارة يا متخلّفة!

ثمّة أغنية لفيروز عليك أن تجعلي منها نشيدك الوطني وهي «بتمرق عليّ امرق

ما بتمرق ما تمرق

مش فارقة معاي

بتعشق عليّ اعشق

ما بتعشق ما تعشق

مش فارقة معاي

بتعلق معاي اعلق

ما بتعلق ما تعلق

مش قصّة هاي»

استمعي طبعًا إلى جاهدة وهبه تغنّي «نسياني». فقد عملنا على أن يكون الـ CD جزءًا من العلاج الذي عليك اتّباعه للتعافي من الماضي.

يمكنك تناول هذه الأغاني على الريق وقبل الأكل وبعده.. وقبل النوم وحال الاستيقاظ، وقبل الفراق وبعده. مدّة العلاج مفتوحة ولا وجود لأيّة تحذيرات خاصّة. لم تسجّل أيّة أعراض جانبيّة إثر تناول جرعات زائدة منها.

* * *

ابق حيث الغناء، فالأشرار لا يغنّون

مثل غجري

لا تصدّقي الأساطير.. فمؤلّفوها رجال!

فراشة الوقت على وشك أن تطير

لا تكن آخر الواصلين

أحدهم سيجيء

سيجيء ويذهب بي

بعد أن يخلع باب

انتظاري لك

اعتبري من ملايين النساء العربيّات كما الأخريات اللائي أهدرن سنوات من أعمارهنّ في انتظار عودة «الحبيب المنتظر» أبدًا... ومنذ الأزل.

في الأساطير والخرافات وحدها يعود فارس أحلامك ليسأل عنك.

يمرّ بغابة، يرى تلك الجميلة النائمة التي حلّت بها لعنة ساحرة شرّيرة. يقبّلها فتستيقظ. لقد أبطلت قبلته مفعول السحر. لكنّ

الجميلة النائمة دفعت مئة عام من عمرها في سبات سحريّ مقابل قبلة.

القصّة تمرّ بسرعة على ذلك الزمن الأنثوي المهدور، لتربّينا منذ الصغر على الانتظار والاستكانة، وعلى قيمة ما يمنّ به رجل عليك أثناء عبوره. فقبلة منه تعادل دهرًا بمقياس الأنوثة!

في الأوديسة تُكافأ بنلوب بعودة زوجها أوليس، لا لأنّها على مدى خمس عشرة سنة كانت تحوك رداء الانتظار في النهار وتفكّ خيوطه ليلاً عن وفاء، بعد أن أعلنت لمن عرضوا عليها الزواج أنّها لن تتزوّج حتى تنتهي من حياكة ذلك الثوب، بل لأنّ هذه الأسطورة (التي كتبها رجل)، أرادت أن تقنع النساء اللائي يمثّلن نصف البشريّة بفضائل انتظار النصف الآخر. انطلاقًا من أنّه يحدث للرجال كما القطط والحيوانات الأليفة أن يتوهوا.. ويصولوا.. ويجولوا.. ويضيعوا في الجزر المسحورة. لكنّهم يعودون دائمًا لتلك المرأة الساذجة التي، أثناء ذلك، أهدرت أجمل سنوات عمرها في انتظارهم كخطيبة.. أو كزوجة، تربّي أثناء غيابهم أولادهم، وتصون شرفهم، وتحمي بيتهم (تمامًا كما أراد لها هوميروس).

وإن كانت بنلوب قد سعدت بعودة زوجها بعد خمس عشرة سنة من الانتظار، فأنا أعرف شخصيًّا ثلاث قصص لنساء عربيّات انتظرن خطيبًا أو زوجًا أسيرًا، حُكم عليه بالسجن سبع عشرة سنة، وعندما أُطلق سراحه انفصل عن الفتاة أو المرأة التي ارتبطت به أثناء أسره. لا أريد أن أحكم على هؤلاء الرجال أو ألومهم، لعلمي بما يلحقه

الأسر الطويل من دمار بنفسيّة رجل. لكنّني لا أستطيع إلاّ أن أتعاطف مع من انتظرنهم لسنوات في سجن الترقّب.

يشهد الله سبحانه الذي خلقنا على هذا القدر من الصبر والغباء، أنّنا كائنات نذرت عمرها للانتظار، حتى نسينا ما كنّا ننتظر بالضبط في البداية، وحتى نسي من كنّا ننتظرهم انتظارنا لهم.

لكأنّ في قلب كلّ امرأة مرفأً أو محطّة قطار أو قاعة في مطار، تُقيم فيها أثناء إقامتها في بيت آخر، فتصفّر القطارات وترحل البواخر وتقلع الطائرات، ويعبر القادمون ويمضي المسافرون، وهي دون وعيها في انتظار الذي يأتي ولا يأتي... كأنّ قلبها يدندن مع فيروز:

تعا ولا تجي

وكذوب عليّ

الكذبي مش خطيّي

وعدني إنّو رح تجي

وتعا ولا تجي..

نصيحة:

قليلاً من الواقعيّة. العمر أقصر من أن تقامري به في روليت الانتظار.

الذي لا يعود بعد يوم لن يعود أبدًا. ما أدراك لعلّ في غيابه من

حياتك حكمة إلٰهيّة ستدركين لاحقًا نعمتها. فكلّ شيء في حياتك يحدث لسبب ما.

أوّل قرار: إغلاقك كلّ قاعات الترانزيت في حياتك.

لا تتركي مقعدًا تجلسين وتنسين نفسك عليه. انتظري واقفة كي تذكّرك ركبتاك بنفاد الوقت، ونفاد قدرتك على الوقوف. فالذي تنتظرينه ربّما كان أثناء ذلك ممدّدًا أو نائمًا. أقصد نائمًا مع غيرك. وقد يكون تزوّج ورُزق منها صغيرات وصغارًا... أثناء عقد قرانك على الانتظار!

* * *

في قطار وعودك

كلّ المقاعد كانت مشغولة

فسافرت صوبك واقفة

لا أحبّ الجلوس

على المقعد الاحتياطي للحبّ

لا تبحثي بعيدًا!

أحببت من أجله من كان يشبهه   وكلّ شيء لدى المعشوق معشوق

في محاولته لنسيانك لن يذهب أبعد منك. فلا تبحثي بعيدًا.

إنّه مع أقرب صديقة لك، أو مع عدوّتك اللّدود حسب الخيار المتوفّر، وحسب درجة حنينه إليك أو كرهه لك.

في الأولى امتداد لك وتنكيل بك. إنّها الطعنة الأكثر إيلامًا، ولو استطاع لخانك مع أختك أو أمّك.

في الثانية تحالف مع عدوّتك، بحثًا عن امرأة تزايد عليه تشويهًا لصورتك. سيسعد لأنّها، بكرهها لك، تطمئنه إلى صواب قراره في التخلّي عنك، أو تخفّف إحساسه بالخسارة إن كنت من تخلّى عنه.
في كلّ علاقة نسائيّة سيتغذّى بكلّ ما يشبهك... عساه يؤلمك.

إن لم يعثر على هذه ولا تلك، سيسعى لحبّ أوّل امرأة يصادفها من بلادك.. لعلّها تكون من مدينتك، ومن منطقتك، لها لهجتك؛ ولِمَ لا؟ لها اهتماماتك، متوهّمًا أنّه في ضربة حظّ أصاب كلّ الأرقام الرابحة لليانصيب!

ستنصب له الذاكرة كمائن، في كلّ امرأة لها شيء منك، أو تذكّره بك. سيرى في ذلك إشارة سماويّة لحبٍّ قدري، فيلحق بنبيّ جديد معتقدًا أنّه ارتدّ بذلك عنك. في الواقع هو لم يغيّر ديانته ولا مذهبه، غيّر فقط وجهة قِبلته.

لا تهتمّي ما دمت الأصل لكلّ نسخة مقلّدة يهجس بامتلاكها!

❊ ❊ ❊

أبدًا لن تنساني

أبدًا لن تنسى

أبدٌ من الندم ينتظرك

من أضاعني قضى وحيدًا كحصان

لا مربط بعدي لقلبه

لا تُسقطي عنه ديون انتظارك...

الذي لا يعتبرك رأس مال، لا تعتبره مكسبًا

أيزنهاور

لا تُسقطي عنه ديون انتظارك السابقة، فهو ليس «عالمًا ثالثًا». لقد كان يومًا عالمك الأوّل، بل كلّ عالمك.

إن أعفيته من جريمة هدر ما مضى من سنوات عمرك، تكونين قد أعطيته حقّ استباحتك من جديد.. وهدر عمرك الآتي.

كوني ضنينة عندما يتعلّق الأمر بالوقت. فرصيدك منه كأنثى سريع النفاد. وقتك لا يُقاس بعملة وقته ولا صبرك يزن وزر صبره. لكنّ حسابك يصبّ في حسابه. ما سيأخذه من خزينة قلبك سينتهي في أرصدته الخاصّة التي، أمام أوّل بوادر أزمة عاطفيّة، ستنهار الانهيار الشاهق لبورصة وول ستريت... أيّام الهزّات الماليّة العالميّة الكبرى.

كلّ دفاتر توفيرك المضني لامتلاك «بيت الأحلام» قد ذهبت مع

الريح، وتبخّرت بفعل الإفلاس المفاجئ لمصرفه. أنت لم تضاربي في أسواق البورصة العاطفيّة. لقد وضعت كلّ مدّخرات عمرك في مصرف صغير يديره «رجل واحد» ائتمنته على آمالك. ما ظننت العواطف سوقًا ماليّة قد تنهار كقصور ورقيّة. لكن عليك الآن أن تصدّقي ذلك!

نصيحة:

أمّا وقد خسرت كلّ شيء.. ورأيت بأمّ عينك كلّ ما جمعته فلسًا، فلسًا، يومًا بعد يوم، على مدى أعوام من الوهم العشقي، يتبخّر، ومعه مدّخراتك العاطفيّة. تعلّمي بعد الآن من المصرفيّين درسًا هامًّا. لا تستثمري كلّ مدّخراتك في بنك العواطف.

فربّما كان بنكًا وهميًّا، أسّسه مُضارب يلعب في سوق الأسهم بصغار المستثمرين، وبالغبيّات من النساء اللآئي يصدّقن العثور على «الطائر النادر» بين الرجال، وجاهزات أن يدفعن عمرهنّ من أجله.

لتكن لك سلّة عمولات. احمي نفسك بعمولات احتياطيّة يديرها العقل لا القلب.

فمن يملك اليوم عملة واحدة، ووجهًا واحدًا، خاسر لا محالة. تحتاجين أيضًا إلى عدّة ألسنة للكذب والنفاق والغشّ، فلا أحد سيصدّق صدقك، أو يثمّن وفاءك للأمانة، يلزمك عزيزتي سلّة أقنعة تتعاملين بها مع الرجل الذي تحبّين. فهو حتمًا يملك أقنعته التي ستُصعقين باكتشافها في آخر المطاف!

* * *

منغمسة في حصر ممتلكاتي

في عدّ كلّ ما أقنعتني

أنّه لي وحدي

وإذ بي منهمكة في عدّ خساراتي

ألصق التنهّدات أوراق جدران

على حيطان بيت.. لن نسكنه معًا

إنّه «التستوستيرون» يا عزيزي!

أصعب الألم أن يكون آخر الحلول جرح من تحبّ!

الفقيد الجميل طلال الرشيد

أثناء دفاعنا عن الحبّ، غالبًا ما نرتكب في حقّ من نحبّ أخطاءً لا تُغتفر. نقول كلامًا جارحًا عكس الذي نودّ قوله. نهدّد بما ندري أنّنا لن نُقدم عليه. ندّعي قيامنا بما لم نفعل.

أمام الخوف من الفقدان، أو تحت تأثير نيران الغيرة، لا عاشق يشبه نفسه. وبقدر قوّة الحبّ يكون عنف العاشقين.

أنت تعذّب الآخر لأنّك تتعذّب به. وأنت تتعذّب به لأنّك ما زلت تحبّه. وكان أسهل أن تقول له هذا. لكن تجد نفسك تقول له العكس تمامًا لتؤلمه.

وبرغم ألمه وعذابه بك سيقلب اللعبة ويُعطيك إحساسًا أن لا شيء ممّا قلته آلمه. وحينها يصبح هدفك أن تُدميه. فتقول كلامًا

يُدميك أنت، وتندم عليه. وسيردّ عليك بما يتركك تنزف لأيّام.. بينما هو ينزف بك على الطرف الآخر!

أمام هذه العواطف الفوّارة المدمّرة لكلا العاشقين يصبح الفراق نوعًا من القتل الرحيم.

ذلك الحبّ الذي وُلد في لحظة شاعريّة، وسط الانبهار والدوار ورجفة البوح الأوّل. ذلك الحبّ الذي توقّفت الكرة الأرضيّة عن الدوران اندهاشًا بحدث قدومه، هو الآن إعصار لا يُبقي على شيء قائمًا. يقتلع في طريقه كلّ ما كان جميلاً في حدائق الحبّ، ويترك قلوب العشّاق للعراء.

رجاء... أوقفي المجزرة. لا تدمّري بيدك أجمل ما أهدتك الحياة من ذكريات. لا تتراشقي معه بالكريات المحرقة للغيرة. إنّه الرجل الذي أحببت، الذي كان أنت، قبل أن....

فليكن، دعيه يمضي بسلام. ستحكم بينكما الأيّام. بعد أعوام، عندما تنطفئ الحرائق ويموت بينكما الألم، وشهوة الأذى، ستستيقظ الذكريات الجميلة، وقد يغدو هذا الحبيب رفيقًا جميلاً لما بقي من عمر.

في هذا الموقف بالذات اختبري طينتك، قوّي إرادتك.. وقاومي نزعتك الأنثويّة للشراسة حتى وإن كانت الأسباب محض هرمونيّة!

بما أنّني أشتمّ رائحة رجال يتجسّسون علينا بين الصفحات، سأتوجّه إليهم مباشرة لأوضّح أنّ عدوانيّة المرأة لا تعود غالبًا

لمزاجها السيّئ، بل لأنّ الحبّ يجعلها كذلك. وهذا حسب دراسات علميّة تجزم أنّه عندما تحبّ المرأة ترتفع لديها نسبة هرمون «التستوستيرون» الذكري المرتبط بالنزعة العدوانيّة. (ربّما نبّهكم هذا الاكتشاف إلى عدم الثقة بامرأة تلاطفكم وتسايركم وتوافقكم على كلّ شيء. وطمأنكم بالمقابل لصدق عواطف نساء بطباع عربيّة شرسة!).

هذه الدراسة نفسها توصّلت إلى أنّ الرجال حين يقعون في الحبّ تتراجع لديهم مستويات «التستوستيرون» إيّاه، فيصبحون لطفاء ورقيقي المشاعر وعاطفيّين، ومرهفي الحسّ. وقبل أن تصدر هذه الدراسة، كان رولان بارت قد قال «عندما يحبّ الرجل يدخله العنصر الأنثويّ».

هل علينا أن نستنتج أنّ رجلاً أصبح فجأة عنيفًا وذكوريًّا في معاملته لنا هو رجل توقّف عن حبّنا؟

وهل على الرجال أن يُدركوا أنّ امرأة ما عادت تردّ على رسائلهم الهاتفيّة بعنف وشراسة، بل بأدب ولطف، هي امرأة قرّرت أن تهدي شراستها لرجل آخر؟

ليسعد الرجل بالحبّ المضادّ الذي تشهره عليه امرأة. لا يكون الحبّ أصدق منه إلاّ لحظة يطلق فيها عليك نار الكلمات كيفما اتّفق.

ذات يوم ستتوجّه الطلقات لصدر رجل غيره، لكنّ القتيل سيكون

هو المتمنّي طلقة تحييه.. لولا أنّه سبق للنسيان أن قتله في قلب تلك المرأة !

* * *

عندما تكره المرأة رجلاً لدرجة الموت .. فاعلموا أنّها كانت تحبّه لدرجة الموت.

مارك توين

تسلّحي بالشوكولا

القوّة هي القدرة على أن تكسر لوحًا من الشوكولا إلى أربع قطع بيدك، ثم أكل قطعة واحدة منها فقط.

جوديث فيورست

الأنوثة تَقلُّب مزاج، وثورة عواطف، وتطرّف أحاسيس، وجوع دائم إلى الحنان، وظمأ إلى شهوات شاهقة لا تعرف لها النساء اسمًا.

لا أحد سيأتي لنجدتك في حزنك وكآبتك، وإحباطك ووحدتك، وخيباتك العاطفيّة.. إلاّ الشوكولا!

تلك اللعنة الشهيّة السوداء، تذوب في فمك، تُعيد برمجة مزاجك نحو الأجمل، تملؤك نشوة وتترك مذاقًا متأخّرًا للذّتها كما لو كانت تلغي ما سبقها.

الشوكولا صديقة المرأة. هي تعويض لها عن كلّ خسائرها، ومواساة لها في كلّ خيباتها، حتى إنّ المرأة جاهزة لتتنازل عن متع

أساسيّة من أجل التمتّع بقطعة شوكولا. ففي أحد استطلاعات الرأي الغربيّة، فضّلت أكثريّة النساء في كندا التهام قطعة شوكولا.. على ممارسة الجنس!

وربّما بسبب تقارب هاتين المتعتين، قام رهبان المكسيك قبل قرون بتحريم تناول الشوكولا على النساء، بعدما اكتشفوا مفعولها الجنسي المثير. أمّا الإسبان الذين كانوا أوّل من اكتشف الكاكاو فقد جعلوا تناوله مقتصرًا على الوجهاء والمحاربين لما يحتويه من مقوّيات.

بإمكاننا إذن، في حربنا على الماضي، والذكريات الأليمة، أن نتسلّح بالشوكولا؛ فهي قادرة دون جهد على مساعدتنا في التغلّب على الشجون العاطفيّة، ومقاومة نزعتنا إلى الكآبة في النهايات الموجعة لقصص الحبّ.

اختاريها سوداء، بحريرات قليلة. إنّها في مذاقها الأسود أنفع وأشهى، وأكثر تأثيرًا على المزاج. شرط ألاّ تكثري منها فتصبحي من مدمنيها وقد تحتاجين حينها إلى لصقة جلديّة للتداوي منها!

أمّا العلاج الأفضل فهو في عثورك على حبيب يهديك كلمات من الشوكولا تستيقظين وتنامين على مذاقها. كلمات تذوبين لسماعها أو تُلقّم لك ذائبة.

انظري من حولك، كثيرون هم الرجال الذين يبحثون عن كائن أنثوي ينسكبون فيه حبًّا وولعًا. كذلك العاشق الذي أهدى حبيبته ثوبًا من الشوكولا، وطلب «صبّه» على مقاسها. ولا أدري إن كان

خلع عنها ثوبها بيديه أم بأسنانه. وهل بعد التهام ثوبها.. سيبقى له من قدرة على التهامها!

* * *

الحبّ بالنسبة إلى الرجل: طبق ثانوي.. وبالنسبة للمرأة: مأدبة كاملة

رولان

أقصر طريق إلى النسيان!

إنّ الحبّ يهبط على المرأة في لحظة سكون مملوءة بالشكّ والإعجاب

د.ج. ويلز

بعض النساء من حولي اتّهمنني بإسداء نصائح مثاليّة، وآخذنني على إهمال أقصر النصائح وأجداها لنسيان رجل. لن آتي على ذكر «أمّ النصائح» هذه، خاصّة أنّها، لإمكانيّة اختصارها في جملة واحدة، كانت ستلغي الضرورة لكلّ ما جاء في هذا الكتاب، الذي كتبته للصابرات وللعاقلات منكنّ. بنيّة دعمهنّ في صمودهنّ في وجه عواصف الذاكرة ورياح الحنين.

برغم ذلك، لا أستطيع إهمال هذه النصيحة لواقعيّتها. كما لا أريد أن أتحمّل مسؤوليّة عواقبها. لذا عليكنّ العثور عليها بمفردكنّ، كما عثر أرخيميدس وهو في مغطس حمّامه على نظريّته، فغادر البانيو وهو يصرخ «وجدتها.. وجدتها!»

بإمكانكنّ الاقتداء بتجربته، وملء مغطس الحمّام والجلوس وسط

رغوة الصابون والزيوت العطريّة والتفكير مليًّا في الطريقة الأقصر لنسيان رجل. فربّما مثل أرخيميدس نزل عليكنّ الإلهام وأنتنّ في «البانيو».

من يدري؟!

برغم ذلك، دعنني أنبّهكنّ إلى خطأ أخشى عليكنّ الوقوع فيه، فتحمّلنني حينئذ ذنوبكنّ.

كنّ بحواسّ متيقّظة تمامًا وأنتنّ تبحثن عن «أمّ النصائح»، ذلك أنّ الجواب يا شاطرات ليس في أوّل فكرة ستخطر ببالكنّ (وتتحمّسن لها).. لكن ـ مع الأسف ـ في الفكرة الثانية!

قليلاً من التروّي! كلّ الذكاء يا عزيزاتي في أن تميّزن بين أوّل فكرة.. وتلك الملاصقة لها تمامًا والتي سيكون فيها خلاصكنّ!

كان الله في عونكنّ.. حظًّا سعيدًا!

* * *

يا حبيبتي..

ماذا نفعل في هذا الوطن؟

الذي يخاف أن يرى جسده في المرآة..

حتى لا يشتهيه..

ويخاف أن يسمع صوت امرأة في التلفون..

حتى لا ينقض وضوءه

نزار قبّاني

كما ينسى الرجال

أفضل ما يمكن توقّعه من الرجال هو النسيان

فرانسوا مورياك

عاودتني تلك الأمنية ذاتها: ليت صوتها يُباع في الصيدليّات لأشتريه. إنّني أحتاج صوتها لأعيش. أحتاج أن أتناوله ثلاث مرّات في اليوم؛ مرّة على الريق، ومرّة قبل النوم، ومرّة عندما يهجم عليّ الحزن أو الفرح كما الآن.

أيّ علم هذا الذي لم يستطع حتى الآن أن يضع أصوات من نحبّ في أقراص، أو في زجاجة دواء نتناولها سرًّا، عندما نُصاب بوعكة عاطفيّة بدون أن يدري صاحبها كم نحن نحتاجه.

عابر سرير

ذلك الصمت الآثم للرجال

«ما عاد بإمكاننا أن نتحدّث مع من نحبّ وليس هذا بالصمت»

رينيه شار

إن كان سلاح المرأة دموعها، أو هكذا يقول الرجال الذين ما استطاعوا الدفاع عن أنفسهم بمجاراتها في البكاء، فقد عثر الرجل على سلاح ليس ضمن ترسانة المرأة، ولا تعرف كيف تواجهه لأنّها ليست مهيّأة له في تكوينها النفسي. لذا عندما يشهره الرجل في وجهها يتلخبط جهاز الالتقاط لديها ويتعطّل رادارها. إنّها تُصاب بعمى الأنوثة أمام الضوء الساطع لرجل اختار أن يقف في عتمة الصمت.

لا امرأة تستطيع تفسير صمت رجل، ولا الجزم بأنّها تعرف تمامًا محتوى الرسالة التي أراد إيصالها إليها. خاصّة إن كانت تحبّه. فالحبّ عمًى آخر في حدّ ذاته. (أمّا عندما تكفّ عن حبّه فلا صمته ولا كلامه يعنيانها؛ وهنا قد يخطئ الرجل في مواصلة إشهار سلاحه

خارج ساحة المعركة على امرأة هو نفسه ما عاد موجودًا في مجال رؤيتها!) كما أنّ بعض من يعاني من ازدواجيّة المشاعر، يغدو الصمت عنده سوطًا يريد به جلدك.. فيجلد به نفسه.

تكمن قوّة الصمت الرجالي في كونه سلاحًا تضليليًّا. إنّه حالة التباس كتلك البذلة المرقّطة التي يرتديها الجنود كي يتسنّى لهم التلاشي في أيّة ساحة للقتال. إنّهم يأخذون لون أيّ فضاء يتحرّكون فيه.

إنّه صمت الحرباء.. لو كان للحرباء صوت. تقف أمامه المرأة حائرة. تتناوب على ذهنها احتمالات تفسيره بحكم خدعة الصمت المتدرّج في ألوانه من إحساس إلى نقيضه.

صمت العشق.. صمت التحدّي.. صمت الألم.. صمت الكرامة.. صمت الإهانة.. صمت اللامبالاة.. صمت التشفّي.. صمت من شُفي.. صمت الداء العشقي.. صمت من يريد أن يبقيك مريضًا به.. صمت من يثق أنّه وحده يملك دواءك.. صمت من يراهن على أنّك أوّل من سيكسر الصمت.. صمت من يريد كسرك.. صمت عاشقين تحابّا حدّ الانكسار.. صمت الانتقام.. صمت المكر.. صمت الكيد.. صمت الهجر.. صمت الخذلان.. صمت النسيان.. صمت الحزن الأكبر من كلّ الأحزان.. صمت التعالي.. صمت من خانك.. صمت من يعتقد أنّك خنته ويريد قتلك بصمته.. صمت من يعتقد أنّك ستتخلّين عنه يومًا فيتركك لعراء الصمت.. الصمت الوقائي.. الصمت الجنائي.. الصمت العاصف.. والصمت السابق للعاصفة.. صمت

الانصهار وصمت الإعصار. . الصمت كموت سريري للحبّ. .
والصمت كسرير آخر للحبّ ينصهر فيه عاشقان حتى الموت. .
الصمت الذي ليس بعده شيء. . والصمت الذي ينقذ ذلك «الشيء»
ومنه تولد الأشياء مجدّدًا جميلة ونقيّة وأبديّة بعد أن طهّرها الصمت
من شوائب الحبّ.

الصمت اختبار، طوبى لمن نجح فيه مهما طال. إنّه يفوز إذن
بالتاج الأبدي للحبّ. . أو بإكليل الحرِّيّة.

نصيحة

تعلّمي أن تميّزي بين صمت الكبار والصمت الكبير. فصمت
الكبار يُقاس بوقعه، والصمت الكبير بمدّته.

الكبار يقولون في صمتهم بين جملتين، أو في صمتهم أثناء عشاء
حميم، ما لا يقوله غيرهم خلال أشهر من الصمت. ذلك أنّ
الصمت يحتاج في لحظة ما أن يكسره الكلام ليكون صمتًا.

أمّا الصمت المفتوح على مزيد من الصمت فهو يشي بضعف أو
خلل عاطفيّ ما، يخفيه صاحبه خلف قناع الصمت، خوفًا من
المواجهة. وحده الذي يتقن متى يجب كسر الصمت، وينتقي كصائغ
مجوهرات كلماته بين صمتين، يليق به صمت الكبار.

تعلّمي الإصغاء إلى صمت من تحبّين، لا إلى كلامه فقط؛ فوحده
الصمت يكشف معدن الرجال.

* * *

هل تسمعين أشواقي

عندما أكون صامتاً؟

إنّ الصمت، يا سيّدتي،

هو أقوى أسلحتي

هل شعرت بروعة الأشياء التي

أقولها

عندما لا أقول شيئاً

نزار قباني

في مواجهة سياسة التجويع الهاتفي

وعندما سينتهي من تلميع حذائه
بكحل بكائك
وبعدما يتعطّر
منعًا لعرق الذكريات
قد يتذكّر. . .
وبهاتفك. . سيّد الهاتف!

ذات يوم، دون إنذار، سيعلن عليك الهاتفُ الإضراب العاطفي المفتوح. . وبعد ولائم الحبّ وكلّ أطباق الأشواق الدسمة التي كان يمدّ موائدها لك، حدّ إصابتك بالتخمة وبالطفرة العاطفيّة. عليك الآن أن تختبري «الريجيم الهاتفي» و«الطفرة» بما تعنيه الكلمة لبنانيًّا.

أنت طفرانة وجوعانة. . أي فقيرة إلى «يونيت» هاتفيّة واحدة منه تسدّين بها رمقك. ستنامين كلّ ليلة على جوعك. تطبخين حصى الأمنيات كما تلك الأعرابيّة، كي تغفي.

أنت لا تملكين القوّة بعد، ولا تدرين كم ستدوم مدّة تجويعك.. وإعلان الحصار الغذائي عليك، لكي تأخذي قرار أن تكوني من يسحب المصل الهاتفي الذي عشت معلّقة إليه أشهرًا، وتمّ إغلاقه بنيّة قتلك.

توقّعي إذًا أن تشقي في كلّ نهاية حبّ، ولن تصدّقي ما يحدث لك.

لكن مع الوقت ستستيقظين، وتأخذين قرار اقتلاع ذلك المصل الموصول بقلبك. وتعودين إلى الحياة.. ببعض الضمّادات حيث كان موقع الجرح، وترفضين الحياة تحت رحمة دقّة هاتفيّة.

إنّه قرار سليم، ارفضي أن يمنّ عليك رجل «بدقّة الرحمة» كنوع من الموت الرحيم.

ليذهب إلى الجحيم!

* * *

الرجل المترقّب هاتفي

القلق في انتظار صوتي

هاتف جوّال في جيبه

وقلبه في جيبي

تلك الآلة التي تهيننا

«في القرن العشرين الحبّ هو هاتف لا يدقّ»

قول لكاتب فرنسي

وماذا لو أنّ المشكل بدأ يوم نسي الناس في هذا الزمن المسرع المجنون لغة العيون، التي كانت لغة الإنسان الأولى لنقل أحاسيسه للآخر. حتى في الأفلام ما عاد الناس ينظرون بعضهم إلى البعض الآخر مطوّلاً تلك النظرات المؤثّرة. . الآسرة.

أذكر الصديق الكبير نور الشريف الذي قال لي مرّة «الممثّل الحقيقي هو الذي تقول عيناه الجملة قبل أن يلفظها. . حتى إنّه أحيانًا لا يحتاج إلى قولها»؛ لكأنّه كان يتحدّث عن العاشق.

اليوم بالذات قرأت مقابلة للمخرج الأميركي الكبير ستيفن سبيلبرغ يقول فيها:

«يوم نتوقّف عن الكلام بالعيون، ستكون نهاية المجتمع». أنكون

انتهينا لأنّنا بدأنا نتكلّم لغة التلفون.. ولغة التلفزيون ولغة الإنترنت ونتبادل الأشواق عبر الرسائل الهاتفيّة والتلفزيونيّة.. ومن خلال «الشات»، دون أن نرى عيون من نتحدّث إليه. ولا هو يرى عيوننا؟ جميعنا عيوننا على الشاشة، وقلوبنا جميعها معلّقة بجهاز يتحكّم في مزاجنا وأحاسيسنا.

ما عاد تعريف الحبّ اليوم «اثنان ينظران في الاتّجاه نفسه» بل اثنان ينظران إلى الجهاز نفسه، ولا صارت فرحتنا في أن نلتقي بمن نحبّ، بل في تلقّي رسالة هاتفيّة منه.

ماتت الأحاسيس العاطفيّة الكبيرة، بسبب تلك «الأفراح التكنولوجيّة» الصغيرة التي تأتي وتختفي بزرّ، منذ سلّمنا مصيرنا العاطفي للآلات.

انتهى زمن الانتظار الجميل لساعي البريد.

صندوق البريد الذي نحتفظ بمفتاحه سرًّا، ونسابق الأهل لفتحه.

الرسائل التي نحفظها عن ظهر قلب ونخفيها لسنوات، الأعذار التي نجدها لحبيب تأخّرت رسالته أو لم يكتب إلينا.

اليوم ندري أنّ رسالته لم تته.. ولا هي تأخّرت.

صار بإمكان المحبّ أن يحسب بالدقائق وقت الصمت المهين بين رسالة.. والردّ عليها!

* * *

كلّما قبّلتك

بعد طول فراق

أشعر أنّي

أضع رسالة حبّ مستعجلة

في علبة بريد حمراء

نزار قباني

ظاهرة الاختفاء المفاجئ لدى الرجال

قلْ يا رجل...

إلى أيّة غيمة تنتمي شفتاك

إلى أيّة أعاصير تنتمي يداك

صوب أيّة وجهة تمضي نواياك

كي أسافر في حقيبة مطرك

وأحطّ حيث تهطل

سيختفي. توقّعي ذلك منذ أوّل ظهور له في حياتك.

الرجل نجم مذنّب يختفي من سمائك دون أيّ إنذار من أيّ مرصد جوّي. عليك آنذاك أن تتحوّلي إلى منجّمة، أو تتعلّمي الضرب بالرمل وخلط الحصى. فمهمّ جدًّا، حال دخولك في علاقة عاطفيّة، أن تكون لك دراية بالتنجيم. فالتفكير المنطقي لا يساعدك بتاتًا على العثور على الأجوبة التي ستؤرّقك لاحقًا.

كالبصّارات على أيّام أمّك، لا على أيّام التنجيم بالكمبيوتر،

عليك ربط رأسك والجلوس أمام كرة من البلّور لمتابعة حركة المجرّات والكواكب التي تدور حولها النجوم «المذنّبة» الرجاليّة.

أو حسب وصفة نسائيّة عربيّة «لضرب الخفيف»، أذيبي قطعة رصاص في وعاء حديدي صغير، وعندما تتحوّل إلى سائل فضي، ضعي بين رجليك مهراسًا حديديًّا فيه ماء أحضرته من البحر، وارمي السائل في المهراس. سيتطاير الماء بقدر ما في حياتك من شرّ وحسد ويتجمّد السائل آخذًا أشكالاً عجيبة. عليك فكّ طلاسمها ومساءلة أصغر تفاصيلها ونتوءاتها:

«أين اختفى المخلوق؟»، «ولا قدّر الله مع من؟» أو اقلبي فنجان قهوتك وسائليه «متى تنقلب الأيّام عليه فيعود؟».. ولأن لا دراية لك بالخلطات السحريّة، ولم يمنّ الله عليك إلاّ بالأسئلة.. أمّا الأجوبة فهي في علم الغيب ولدى أطبّاء علم النفس الرجالي.. فستقضين أيّامًا، منهمكة في استعادة كلّ كلمة قالها أو قلتها خلال آخر اتّصال هاتفي.. عساك تعثرين على «كلمة السرّ» التي اختفى بعدها عن مجال الرؤية.

يلزمك الصندوق الأسود الذي وحده يحمل سرّ اللحظات الأخيرة في كلّ كارثة جويّة.

هل السبب خطأ «إنساني» أم «خلل تقني» في اختلال العلاقة؟ نفاد وقود الحبّ؟ الاصطدام القدري بحبّ آخر تخبّئه لك أم له الأيّام؟

نصيحة:

لا تستنزفي طاقتك بالأسئلة. كوني قدريّة. لا تطاردي نجمًا هاربًا، فالسماء لا تخلو من النجوم.

ثم ما أدراك، ربّما في الحبّ القادم كان من نصيبك القمر!

* * *

مذعورة كسنجابة

أقفز بين أشجارك

لا أدري في أيّة فجوة

أخفي كستناء فرحتي

كلّما قلتَ:

«لا سواك امرأتي»

لكن في كلّ فجوة شجرة

أعثر على جثّة امرأة

سبقتني إليك

دعي هذا الأرنب يهرب!

لا سبيل للرجل كي ينتصر على المرأة إلاّ بالفرار منها

جون باري مور

اعلمي، يرحمك الله، أنّ الرجل أرنب، أمام أوّل مواجهة يهرب. لأنّه لا يملك تبريرًا لأيّ تصرّف ولا أيّ جواب على أسئلتك الكثيرة. في الهروب مخرج مشرّف له.

يكفي أن يسمّي ذلك انسحابًا. هذا ما يقوله لنفسه وعليك أنت أن تسمّي ذلك ما شئت، فهو لن يكون هنا لمناقشتك في تعريف الأشياء.

أين يهرب؟ اطمئنّي! هو لا يهرب دائمًا إلى امرأة أخرى. في البدء، كحيوان مطارد أو حيوان جريح، سيهرب إلى مغارته.

يستعيد نفسه وأنفاسه، يرتّب أوراقه، يبتهج بحرّيّته وبإنقاذه رجولته ممّا يراه «فخًّا نسائيًّا» أو عاطفيًّا، لكنّه لن يكون سعيدًا

تمامًا. يلزمه بعض الوقت ليصمد في وجه رياح الحنين التي تعود به إلى الوراء.

بعدها ستعود له الروح تدريجيًّا، وتبدأ أطرافه بالتحرّك كحشرة مقلوبة على ظهرها. سيتخبّط بعض الوقت بحثًا عن امرأة أخرى تساعده على الوقوف على قوائمه. وعندما سيجدها (أعني عندما ستجده) ستراوده المخاوف نفسها ويكرّر معها سياسة الأرنب.

نصيحة:

لا تحزني على أرنب فرّ خارج حياتك. إنّ رجلاً هرب مرّة.. سيهرب كلّ مرّة من كلّ امرأة!

كوني أوّل من يهرب من رجل كهذا، حتى لا تمنحيه فرصة هدر وقتك.. أو إهانتك. اقلبي قانون الذكورة. كوني من يهينه بالانسحاب. عندها فقط ستصبحين «عقدة الأرنب» وسيبدأ في مطاردتك!

* * *

الرجال يحبّونك عندما تهينينهم، لا تسأليني لماذا... هكذا هم

باميلا أندرسون

الـرجل.. هذا الـكائن الـذي لا يعتـذر!

في الأمور العظيمة يتظاهر الرجال كما يحلو لهم. وفي الأمور الصغيرة يبدون على حقيقتهم.

شامبور

يحتاج الرجل العربيّ أن يضعك في قفص الاتّهام كي يمنّ عليك بالعفو، ويكون حينها «سيّدك».

الرجل حاكم عربي صغير لم تسمح له الظروف أن يحكم شعبًا، لكنْ وضعك الله في طريقه، وأنت شعبه.

وعليك أن تعرفي إذن أنّك لن تسمعي منه كلمة اعتذار ما حييت. . . ومهما اقترف من أخطاء في حقّك. لقد أهدر سنوات من عمرك، وربّما عمرك، وبدّد طاقتك للعمل، واغتال ما كان يمكن أن يكون أكبر إنجازاتك، وسطا على رصيدك العاطفي وعلى بنك أحاسيسك، وراح يبذّرها هكذا على مرأًى منك. لن تستطيعي برغم ذلك محاسبته.

هل حاكَمَ شعب عربيّ واحد حاكِمًا على تبذيره، وسوء تصرّفه بثروة ليست من خزانة أبيه؟ لا تنتظري منه أيضًا اعتذارًا، هل أنت، لا قدّر الله، مواطنة أوروبيّة أو أميركيّة لتطالبي رجلاً بأن يعتذر لك لأنّه كذّب عليك، أو خان وعوده الانتخابيّة (أيّام الخطوبة)، أو اختلس أحلامك وأنفقها على أخرى وأمسكته بالجرم المشهود، كما أمسكت الصحافة ببيل كلينتون متلبّسًا بتدريب مونيكا في البيت الأبيض؟

أنت تنعمين بحبٍّ ديموقراطيّ، تملكين فيه حقّ الاستماع لرجل بدل أن يعتذر عن ظلمه لك وسوء ظنّه بك، ينتظر اعتذارك عن أمر لا علم لك به، وليد ظنونه ومخاوفه الرجاليّة وشكوكه. فككلّ حاكم عربيّ أيضًا، العاشق العربيّ «مشكاك» ولا يتوقّع إلاّ المكائد، والخيانات من أقرب الناس إليه.

توقّعي أن يقاصصك أسابيع طويلة وأشهرًا إلى أن تستسلمي راكعة له.

نصيحة:

كلّ دفاع منك سيوظّف ضدّك. اصمتي... لا تقسمي أو تبكي فتضعي نفسك في موقف المتّهم.

أنت تؤكّدين له بتصرّفك هذا أنّه على حقّ وأنّك مذنبة.

خاصّة أنْ لا جدوى من الكلام. لا شيء ممّا تقولينه سيصدّقه. هل يصدّق طاغية من يقول له إنّه يحبّه ويخلص في حبّه؟

ابتعدي عن رجل لا يملك شجاعة الاعتذار، حتى لا تفقدي يومًا احترام نفسك، وأنت تغفرين له إهانات وأخطاء في حقّك، لا يرى لزوم الاعتذار عنها. سيزداد تكرارًا لها.. واحتقارًا لك.

لو عرف الرجال عظمة رجولة تعترف بالخطأ، لتجمّلوا بالاعتذار.

بهذه الصفة بالذات يُقاس السموّ الخلقي لرجل يرى في اعترافه بالخطأ فضيلة، لا إنقاصًا من كرامته.

* * *

«الرجولة هي ثقافة النظرة وسط جهل العيون، وهي حضارة الكلمة وسط حضور الصمت، وهي الذراع التي تمتدّ لتحمي، والعقل الذي يفكّر ليصون، والقلب الذي ينبض ليغفر».

محمّد السيّد محمّد

ليس الحبّ وإنّما النسيان هو رجل حياتك

«الحبّ يقتل الوقت. . والوقت يقتل الحبّ»

نقضي عمرنا في التغزّل بالحبّ، والتجمّل استعدادًا له. والتضحية في سبيله حين يجيء، والتأقلم مع مزاجه المتقلّب وتجميل كوارثه، والتغاضي عن عواقبه. . وعن عيوبه.

نعدّ له أجمل غرفة في قلبنا، ثم لا نلبث أن نسلّمه قلبنا شقّة مفروشة، ونهيم مشرّدين دون مأوى. الحبّ احتلال نرضى به، نطالب به محتلاً ومستبدًّا، لاعتقادنا أنّه رجل حياتنا الأمثل والأشهى والأبقى.

ثم، مقابل أيّام من السعادة، ندفع الثمن أشهرًا وأعوامًا من الشقاء. . فلا أحد قال لنا إنّ الحبّ عابر سبيل، يمرّ بنا ويواصل طريقه من دوننا، مهما طال المشوار. [بينما النسيان هو المقيم في أيّامنا وسريرنا ومفكّرتنا. إنّه رجل حياتنا].

إن كان الأمر كذلك.. لماذا إذن لا نستعدّ له ونتجمّل، ونحتفي به وندلّله، وهو سندنا الحقيقي والوحيد في هذه الدنيا!؟

عندما نفكّر بمنطق ألاّ نشعر بالحياء لأنّنا مقصّرون تجاهه، يكفي أنّنا أوجدنا للحبّ عيدًا، ونسينا أن نحتفي بالنسيان، برغم كونه من يأتي كلّ مرّة لنجدتنا من ظلم الحبّ. إن كان للحبّ يوم فالمنطق يقتضي أن يكون للنسيان موسم أو فصل هو سيّده ومولاه.

ما دمنا غير جادّين في ردّ الاعتبار للنسيان، سيظلّ الحبّ يستفرد بنا ويستقوي علينا (ويدير فينا «كراعُو») كما نقول في الجزائر، أي يعمل فينا ما يعمله الكلب بقائمته في الأكل الذي يقدّم إليه، فيقلب الإناء ويخلط الطعام، ويعبث به قبل أن يأكله.

بينما يقدّم لنا النسيان الأكل الصحيّ والـ «bio» حفاظًا على صحّتنا، وإنقاذًا لنا من «سمّ البدن» العاطفي!

* * *

تنصب الذاكرة، كلّ يوم، أمامي فخًّا من تفاصيل أيّامي الغابرة

أدونيس

بلى.. أنت تستطيعين ذلك

"Yes we can"

الشعار الانتخابي لأوباما

«الفائزون يتوقّعون فوزهم مسبقًا، فالحياة نبوءة تحقّق لكلّ شخص ما يتنبأً به»

إن كان أوباما قد استطاع تحقيق معجزة تغيير وضعه التاريخي، من سليل عبد إفريقي إلى رئيس يحكم أعظم دولة في العالم، من بين مواطنيها من كانوا سادة أجداده، فأنت أيضًا تستطيعين التخلّص من استعباد رجل لك، ونسيان آثار قيده على معصمك، والانطلاق نحو إنجازات حياتك. الحرِّيّة هي ألاّ تنتظري أحدًا.

فما العبوديّة سوى وضع نفسك بملء إرادتك في حالة انتظار دائم لرجل ما هو إلاّ عبد لالتزامات وواجبات ليس الحبّ دائمًا ضمن أولويّاتها.

الحرِّيّة أن تكوني حرّة في اختيار قيودك التي قد تكون أقسى من قيود الآخر عليك. إنّه الانضباط العاطفي والأخلاقي الذي تفرضينه على نفسك، وتحرصين عليه كدستور.

الحرِّيَّة هي صرامتك في محاسبة الذات، ورفضك تقديم حسابات لرجل يصرّ أن يكون سيّدك وعزرائيلك، الذي يملك جردة عن كلّ أخطائك، ولا علم لك بخطاياه.

تعلّمي أن تفرّقي بين القيود والأصفاد. ارفضي الأخيرة حتى وإن جاءتك من ألماس (كتلك التي أهداها أحد الأثرياء إلى حبيبته، وصُمّمت خصّيصًا له مطابقة للأصفاد التي يضعها البوليسي في معصم الجناة).

فقبولك بها، ولو عشقًا للحبيب، ستقودك إلى دخول معسكرات الاعتقال العاطفي بشبهات لا علم لك بها، تعشّش في رأس سجّانك.

تذكّري أنّ القيد لا يحمي الحبّ بل يدمّره، لأنّه ليس دليلاً عليه بل دليل شكّ فيه. وأيًّا كان ولعك بسجّانك، ذات يوم ستكسرين قيده.

فلا بدّ لللّيل أن ينجلي ولا بدّ للقيد أن ينكسر

قال الشابي في رائعته «إذا الشعب يومًا أراد الحياة».

أدركونا بفيل!

«علّمتني الدنيا

أن ليس كلّ الذّئاب أعداء

ولا كلّ العصافير أصدقاء ولا كلّ الأرانب أليفة،

ولا كلّ الأسود مفترسة

أن ليس كلّ الأطفال أنقياء،

ولا كلّ الثعالب ماكرة

ولا كلّ العقارب سامّة،

ولا كلّ الكلاب أوفياء»

الكاتبة الإماراتيّة شهرزاد

في كتاب «الرجال والنساء»، وهو كتاب جدلي حواري بين الكاتبة فرنسواز جيرو والفيلسوف الفرنسي برنارد هنري ليفي، يقول ليفي إنّ أروع ما قيل في الإخلاص قرأه في نصّ لفرنسواز دي سال، تقول فيه «إنّ الرجل يشبه الفيل الذي لا يرغب أبدًا في تبديل

الأنثى التي اختارها. فهذا الحيوان الضخم هو أكثر الحيوانات وفاءً على الأرض. تصوّري زوجين يخلص أحدهما للآخر مخافة السيدا. فأيّ قيمة لمثل هذا الإخلاص؟ وحده إخلاص الصوفيّين حقيقي. إنّهم مخلصون من الطراز الأوّل. لأنّهم يدركون ضعفهم ويعزمون على الصمود؛ وهذا أروع أشكال الإخلاص وأرقاها».

ملايين النساء في العالم يحلمن بأن يلتقين بهذا الصوفي الزاهد في كلّ نساء الأرض، والذي لا يهجس إلاّ بامرأة واحدة؛ تلك التي اختارها حبيبة لمدى العمر.

وحتى لا نظلم الرجال، نقول إنّ بينهم سادة في الوفاء. رجال أوفياء كأنبياء لرسالة، جميلون في تعفّفهم، كبار في عواطفهم، لولا أنّ تلك العواطف الكبيرة تولّد لديهم شكوكًا كبيرة أيضًا. إنّهم لا يثقون في عواطف الطرف الآخر، ولا يتوقّعون أنّ امرأة قد تضاهيهم إخلاصًا وتزيد.

هؤلاء، مع الأسف، غالبًا ما يصنعون عذابهم بأنفسهم، ويخسرون حبّ حياتهم، ثم ينطفئون من الداخل إلى الأبد، لأنّهم خُلقوا للحبّ الكبير، ويأبى قلبهم القبول بفتافيت العواطف. هم ليسوا عصافير، إنّهم نسور. فالنسر هو الحيوان الآخر الذي يكتفي بأنثى واحدة، ويبقى مخلصًا لها ما دام حيًّا.

إن أهدتك الحياة هذا الطائر النبيل حبيبًا، إنّها فرصتك لتعيشي أسطورة الحبّ الكبير. حافظي عليه بالصبر على ظلمه. كذّبي شكوكه بالوفاء. أخلصي له مهما طال الفراق؛ فالطائر النبيل يعود دومًا.

أمّا إن لم تضع الحياة في طريقك سوى الخونة والكاذبين من الرجال.. فأحبّي فيلاً!

صحيح أنّك ستحتاجين للسفر إلى الهند، أو إلى إفريقيا للعثور على نصفك الآخر، لكن هل أنت واثقة من العثور على رجل وفيّ حيث أنت؟ فالوفاء في تناقص وغوايات الخيانة في ازدياد.

ثمّ أنت مع الفيل تضمنين، إلى جانب إخلاصه، عدم نسيانه لك. فالذاكرة هي الصفة الأولى التي يُعرف بها الفيل (وهو ما لا يتوفّر في النسر الذي بالمقابل يملك قوّة بصريّة تعادل خمسة أضعاف النظر لدى الإنسان؛ أي عليك الأخذ بعين الاعتبار نظره الثاقب. وعدم إهمال الاعتناء بتفاصيلك النسائيّة، وأن تبقى «الحلاوة» على النار على مدى الليل والنهار، لأنّ نظراته لن تفوّت شعرة فيك!).

تصوّري كم أنت محظوظة! بإمكانك أن تباهي أمام صديقاتك بأنّك عثرت على مخلوق وفيّ لن ينساك مدى الحياة، تهجس به جميع النساء. فهو لن يخونك مع امرأة لأنّه حتى أنت «مش شايفك» فكيف له أن يقشع غيرك. فالمعروف عنه أنّه يتقدّم محرّكًا خرطومه في كلّ الاتّجاهات «غير قاشع قدّامو»! توقّعي إذًا أن تفوزي بكائن وفيّ سيكسر كلّ شيء في حياتك، ومن هنا جاءت تلك المقولة «دخل حياتي دخول فيل إلى محلّ للفخّار». ولا بأس ممّا سيخلفه من دمار فذاكرته تشفع له.

أليس النسيان مأخذنا الأوّل على الرجال؟

صدّقيني، لا أرى غير الفيل لتحقيق مطالبنا.. أعني في حدود

«إمكانيّاته» التي لن نذهب حدّ مطالبته باستعمالها جميعها نظرًا لقياساته. شخصيًّا، لا أنصحكنّ بالتحرّش به، هذا مخلوق ليس من صالح أنثى ممازحته، حتى لا تُلازم السرير اثنين وعشرين شهرًا! وهي مدّة الحمل عند أنثاه. برغم أنّه فيما يخصّني، قد تكون فرصتي الوحيدة للبقاء في البيت، وإنجاز ما بقي لي من أعمال، وقد أتمخّض حينها عن عمل روائي كبير وأنجب لكم بدل الفأر.. فيلاً!

الكارثة ألاّ ينسى الفيل الذي يتمتّع بذاكرة انتقاميّة بعد ذلك أنّني أنثاه وأمّ ذريّته، فيبدأ في مقاصصتي على خيانتي له في الروايات، وقد يستشيط غضبًا، محقّقًا أمنية بعض الكتّاب والكاتبات بنهايتي مدهوسة تحت حوافره في نوبة من نوبات غيرته!

فأكون قد «هربت من الموت ووقعت في قبّاض الأرواح» كما تقول أمّي.

نصيحة:

الحياة غابة. (أنفقت عمري قبل أن أكتشف ذلك!).

كلّما تقدّم بك العمر ازددت توغّلاً في الأدغال، ووجدت نفسك مضطرّة إلى التعامل مع حيوانات بمظهر بشري، خاصّة إن كنت امرأة فراشة، تخال العالم مرجًا من الزهور. عليك أن تأخذي علمًا بأنّ كلّ كائن ترينه، سواء كان رجلاً أو امرأة، يخفي كائنًا آخر. «نحن نعيش في غابة معظم حيواناتها تعيش بداخلنا».

إنّنا نختلف فقط في الفصيلة التي ننحدر منها. بيننا الحصان

والطاووس والثعبان والدولفين والثعلب والعقرب والكناري، والكلب والقطّ والفيل والزرافة والأسد والأرنب والفأر والخنزير. وعليك أن تتعرّفي على الجزئيّات الحيوانيّة التي في كلّ واحد قبل أن تسلّميه نفسك. وقبل حتى أن تسلّمي عليه. ربّما كان ضفدعًا وصنع من سلامك قصّة ينقّ بها في المستنقعات!

وربّما خلته نسرًا وإذا به من فصيلة العقبان والجوارح التي تترقّب لحظة نهشك.

وربّما خلته دولفينًا، ورحت تسبحين معه وتلاعبينه، وإذا به سمكة قرش تفتح فكّيها للانقضاض عليك. وربّما خلته كلبًا وإذا به ذئب، أو ظننته قطًّا سياميًّا وإذا به يتحوّل في بيتك إلى أسد ضارٍ.

صار لزامًا علينا أن نتعلّم علم الفراسة.. ونُقلع عن متابعة القنوات السياسيّة أو الطربيّة، ونتابع عوضًا عنها القنوات المختصّة بالحيوانات حتى لا نخطئ في اختيار «حيوان» حياتنا.

كفانا صدمات!

* * *

«الفيل هو الحيوان الوحيد الذي يستطيع أن يقول لأنثاه صادقًا.. أنا «كفيل» بك!!»

كمائن الذاكرة

«الذاكرة أحسن خادم للعقل، والنسيان أحسن خادم للقلب»

ليس ثمّة موتى غير أولئك الذين نواريهم في مقبرة الذاكرة. إذن يمكننا، بالنسيان، أن نشيّع موتًا من شئنا من الأحياء، فنستيقظ ذات صباح ونقرّر أنّهم ما عادوا هنا.

بإمكاننا أن نلفّق لهم ميتة في كتاب، أن نخترع لهم وفاة داهمة بسكتة قلميّة مباغتة كحادث سير، مفجعة كحادثة غرق، ولا يعنينا إن هم بقوا بعد ذلك أحياء. فنحن لا نريد موتهم، نريد جثث ذكراهم لنبكيها، كما نبكي الموتى. نحتاج أن نتخلّص من أشيائهم، من هداياهم، من رسائلهم، من تشابك ذاكرتنا بهم. نحتاج على وجه السرعة أن نلبس حدادهم بعض الوقت، ثم ننسى.

لتشفى من حالة عشقيّة، يلزمك رفات حبّ، لا تمثالاً لحبيب تواصل تلميعه بعد الفراق، مصرًّا على ذيّاك البريق الذي انخطفت به يومًا. يلزمك قبر ورخام وشجاعة لدفن من كان أقرب الناس إليك.

عابر سرير

هل تريدين النسيان حقًّا؟

افتحي ذراعيك يا ذاكرتي فقد حان استقبال النسيان

ناديا تويني

مذ قرّرت نسيانه، اجتاحك ألم لا تعرفين مكمنه.

في أيّ مكان كان يقيم فيك هذا الرجل بالضبط إلى الآن، لا تدرين، فكلّ شيء في جسدك يؤلمك مذ قرّرت ألاّ مكان له بعد الآن في حياتك. تفهمين معنى قول نزار «أقصّ جذور هواك من الأعماق».

الألم لا يوجد على السطح، إنّه في نهايات عصب الأعضاء، في مفاصلك وخلاياك.

كلّ ما فيك يبكيه ويحقد عليه. يبكيك ويتمرّد عليك، وأنت الخصم والحكم، والقرار والألم، وعليك أن تحسمي أمرك بحزم: هل تريدين النسيان حقًّا؟ وحتى عندما تجيبين «بنعم» اسألي نفسك مجدّدًا على طريقة جورج قرداحي «هل هذا هو جوابك النهائي».

في هذا الموضوع توقّعي أن تغيّري جوابك أكثر من مرّة، حتى بعد انتهاء الوقت المحدّد.

ثم.. في هذا السؤال بالذات لا تستعيني بالجمهور ولا بصديقة. فلن يكونوا هنا حين ستخوضين، ليلاً نهارًا، أشرس معارك حياتك ضدّ الذاكرة، أي ضدّ نفسك.

ما تودّين القيام به هو بالتحديد بتر أجزاءٍ منك لتستبدلي بها قطع غيار بشريّة جديدة لا علاقة لها بماضيك، وليس على قرصها المضغوط أيّة ذكريات؛ أي أنّك تريدين أن تستبدلي بالذاكرة النسيان، الذي هو جسم غريب عنك، لذا سيرفضه جسمك في البداية، وتبدو عليك أعراض مرض عضوي ونفسي يرافق مثل هذه الحالات.

إن نويت على النسيان ادخلي المعركة، وأعطي الوقت وقتًا. يحدث للجسم أن ينسجم حتى مع قلب اصطناعي يخفق فيه. ما أدراك ربّما كنت أوّل عربيّة تنجح معها التجربة!

* * *

جسمك إشكال لغويّ كبير

فلا أنا أعرف كيف أحفظه

ولا أنا أعرف كيف أنساه

نزار قباني

نترك خلفنا ما يشي بنا

«يا كريم الغياب»

سعيد عقل

إنّ العطاء إحدى ملذّات الحبّ، وأحد مقاييسه.

عندما يحبّك رجل ـ أعني عندما يعشقك ـ يودّ لو اقتسم معك كلّ ما هو له، بل لو منحك كلّ ما يملك، وغدا ضيفًا عليك لاعتقاده أنّه يقيم فيك، ولا عقارات له في الدنيا سواك.

البعض يفوق كرمه جيبه، لأنّ يده تسابق قلبه، فيمنحك في أيّام ما لا يمنحك آخر في سنوات. سيصعب عليك نسيان رجل كريم (كما يصعب على رجل نسيان امرأة كريمة).

ستظلّ الأشياء بعده تذكّرك أنّه ترك شيئًا من قلبه في كلّ ما هو حولك، وأنّه لم يقصد بسخائه رشوة قلبك بل إسعادك لفرط سعادته بك.

لم تكن لهداياه مناسبة. المناسبة كانت الامتنان اليوميّ للحياة

التي وضعتك في طريق قلبه، لكأنّه يريد تطويقك كي لا تلمسي أحدًا سواه، أو شيئًا إلاّ منه، سواء غلا سعره أو رخص.

لكأنّه يريد أن يحمل كلّ شيء عنك، كلّ همّ يشغلك. لفرط تدفّقه سيفيض على كلّ شيء حولك. لا سدّ يقف في وجه رجل يحبّك بجنون. أخطر ما في هذا الرجل أنّه سيصبح عندك مرجعًا للحبّ، لا بمقياس جيبه بل بمقياس قلبه. فالهديّة بقدر ما يبذل فيها المرء من نفسه، لا بقدر ما ينفق فيها من ماله. وستتساءلين إن كان الذين مرّوا ولم يتركوا خلفهم شيئًا تلامسينه يشهد بمرورهم ببيتك، وبخزانة ثيابك، وبمواسم أعيادك، قد أحبّوك حقًّا.

ما كنت لتنتبهي أنّ رجلاً أحببته لسنوات، ما ترك شيئًا خلفه.. لولا أنّك حين رحل افتقدته بجنون، وحاولت أن تستعيني على غيابه بأشيائه؛ فما وجدت شيئًا منه تلمسينه أو تلبسينه.

تمنّيت لو أنّك ما ارتديت سوى ما أهداك، لو أحطت نفسك بأشيائه. فأيّ شيء منه كان يكفي ليغطّي احتياجاتك العاطفيّة لأشهر.

لكنّه تركك لعراء الأشياء، وعليك برغم ذلك أن تسعدي. لا شيء حولك أو فوقك سيذكّرك به أو يعذّبك بذكراه. لا شيء ستلمسينه، ستشمّينه وتبكين. لا شيء سيتآمر معه عليك، ويوقظ فيك الحنين.

مع الوقت ستجدين عزاءك في غناك عنه. والاستغناء بداية النسيان!

ربّما ما كان بخيلاً ولا أنانيًا، وربّما كان سخيًّا بما هو أثمن من أن يُشترى، لكنّه ما كان معنيًّا بتطويقك به، بقدر ما كان مهتمًّا باستحواذه عليك.

تحكي سيّدة فرنسيّة أنّها عندما لم تجد شيئًا من الرجل الذي تخلّى عنها لتلمسه، ربّت قطًّا، لعلمها أنّ له في بيته قطّة وهو متعلّق بها، وصارت تُجلس القطّ في المكان الذي كان يجلس عليه حبيبها. كانت كلّما اشتاقته تضع القطّ في حجرها وتداعب فروه، فيستسلم القطّ لمداعبتها ويغفو، فتسعد حينًا.. وحينًا تبكي.

مع الوقت أصبح القطّ «رجل قلبها» يعرف خطوتها، ينتظر عودتها خلف الباب، يلاحقها من غرفة إلى أخرى. فتطعمه وتدلّله وتحنو عليه، فيردّ لها الكرم وفاءً وحنانًا.

عندما مات قطّنا قبل فترة، تذكّرت هذه السيّدة وتساءلت لو مات قطّها يومًا، أيّ الثلاثة ستبكي؟ ذاتها.. حبيبها.. أم القطّ؟ ومن منهما مات قبل الآخر في قلبها؟ وعلى من سيكون حدادها؟

ثم.. أيّ الخيارين الأكثر خيانة وإذلالاً للرجولة: أن تستعين امرأة على نسيان رجل برجل آخر؟ أم أن تلجأ إلى قطّ ليُنسيها رجلاً، بعدما لم تجد شيئًا منه يساعدها على انتظاره؟

وأيّ زمن هذا الذي ينتهي فيه حبّ كبير إلى عواطف في عصمة قطّ فيخون الرّجل العشرة، وتُخلص المرأة لحيوان، بعد أن أوصلتها خيبتها فيه إلى الزهد في جنس الرجال!

* * *

إنّه ينوي اغتيالك معنويًّا

وإن كـان مـحـبـوبـي أراد مـنـيّـتـي فقد نال منّي بالنوى فوق ما نوى

النسيان هو جثّة الوقت العشقي الممدّدة بين عاشقين سابقين.

الاحتضار السريري الغبي لانتظار خلته يومًا، فإذ به يدوم أسبوعًا، ثمّ شهرًا، ثمّ دهرًا، بسبب أمر لا علم لك به.

الإلغاء التدريجي في حياتك لكلّ وظائف أعضائك المغدور بها. الموت الحسّي لكلّ حواسّك التي تعطّلت بتعطّل ساعتك الداخليّة التي كانت تعمل بتوقيت الحبّ.

هو ذاكرة تعمل كساعة داخلك، تنبّهك إلى عادات سابقة اغتالها رجل أعلن اغتيالك المعنوي، ساعة كان هو عقاربها وغدا عقربها.

في كلّ مرّة تنتظرين صوته في الساعة إيّاها ولا يأتي، تموتين متسمّمة بالصمت. سمّه يتسرّب إليك من جثّة الهاتف.

لا يغادرك إحساس بجحوده لما أعطيته من وفاء، بعدم اكتراثه بألمك، باستخفافه باحتمال موتك قهرًا وقهرك لفرط موت الوقت وموته هو داخلك، بعد أن سمّمت الغيرة كريات دمه..

أحاسيس موجعة ستنخرك وتقتلك بعدد الدقائق. وستكونين أكثر عذابًا من أن تعي أنّ سمّه هو الوصفة بالذات التي كانت تلزمك للشفاء منه، وأنّ الله الذي يحبّك قد ألهمه وسيلة عتقك.

يومًا بعد آخر سيعتاد جسدك على جرعات السمّ.. ولن يعود له من تأثير عليك. لقد لقّحك من إدمانك إيّاه. طبعًا لم تكن هذه نيّته ولا خطّته. ربّما ظنّ أنّك على طريقة المدمنين اليائسين ستهجمين على صيدليّة وتسطين تحت تهديد السلاح على جرعتك من «الكوكايين العشقي» مطالبة بأقراص صوته.. ومصل كلماته تلك، أو أنّك ستقومين بخطف عاشقَيْن كرهينة وتهدّدين بقتلهما نكاية في الحبّ، إن هو لم يحضر!

وقد تشفقين عليهما.. وتقرّرين الانتحار نكاية فيه، تاركةً خلفك رسالة ولاء ووفاء لجلاّدك، عساه يشقى بموتك بقيّة أيّامه.

هذه أمنياته غير المعلنة. إنّه يريد دليلاً ملموسًا على جنونك به. لكنْ أنت التي كنت مجنونة به حقًّا ستستعيدين قواك العقليّة أمام هذا التحدّي.

على أيّامنا ما عاد قيس هو المجنون.. كلّ «قيس» همّه البحث عن مجنونة!

«ربّي يكثّر المهابل حتى يعيشوا الفاهمين»! تقول أمّي.

بسرعة استعيدي عافيتك.. تذكّري أنّ حبًّا يتغذّى شرّه من خيرك وسمّه من صبرك ليس حبًّا.. إنّه حالة مرضيّة.

* * *

كلّما ازداد حبّنا تضاعف خوفنا من الإساءة لمن نحبّ

بالزاك

عطر النسيان

عساها تطاردك رائحتي

ويحتجزك حضني

وتخذلك النساء جميعهنّ

فتعود منكسرًا إليّ

ليس للنسيان عطر. العطر لا يمكن أن يكون إلاّ عطر الذكريات.

وقعت على هذه الحقيقة وأنا أبحث للغياب عن عطر، ينقذنا من عطر الذاكرة المرتبط وجدانيًّا بما عشناه وتقاسمناه مع أحد.

لا يبدو الأمر سهلاً؛ فالإنسان يملك ٣٤٧ جينة خاصّة بالشمّ، مقابل أربع فقط للبصر، أيّ أنّنا نرى.. ونحبّ.. ونشتهي.. ونحنّ.. ونأكل.. ونتذكّر بأنوفنا.

العطر مزيج من كيمياء الجسد.. وكيمياء عطر في قارورة، لذا توجد عطور بعدد البشر.

على كلّ امرأة أن تخلق الخلطة السحريّة لعطر لن تضعه امرأة

سواها. إنّه عطر نسيانها الشخصي الذي تلغي به عطر الماضي وعطر النساء الأخريات في ذاكرة رجل.. أو تلغي به زمنًا ولّى مع رجل.

المطلوب عطر يمكّنها أن تنسى، من دون أن يتمكّن الآخرون من نسيانها!

لقد كان الرجال في الماضي، في زمن البداوة الجميلة، يعرفون عطر نساء القبيلة، واحدة، واحدة. وبإمكانهم، رغم الحجاب، التعرّف على اسم امرأة عبرت أو غادرت لتوّها المجلس ممّا تركته خلفها من شذًا. ربّما علينا أن نجرّب هذه الخدعة لنعرف إلى أيّ حدّ عطرنا لا يشبه سوانا.

في سعيك إلى نسيان رجل لا تنسي أن تغيّري عطرك الذي كنت تضعينه من أجله. أهدي صديقاتك عطر ذاكرتك العاطفيّة السابقة. تخلّصي منها كي لا تستقوي عليك القوارير.. حتى بحضورها الصامت، وتطالبك.. به.

إنّ وفاءك لعطر كنت تضعينه على أيّامه هو وفاء غير معلن له. وقبولك باستحواذه على حواسّك حتى بعد انفصالك عنه.

عليك أن تقعي في حبّ عطر جديد. هذه الفكرة في حدّ ذاتها ستفعل مفعولاً سحريًّا عليك، وتقنعك أنّ ثمّة شيئًا انتهى، وأنّ آخر سيجيء، وسيكون له شذا عطر يعلق بك منذ الرشّة الأولى، تمامًا كنظرة أولى.

لا تنسي أن تستعدّي لحدث اختيار عطر أيّامك القادمة بارتداء أجمل ثيابك وأحلى أكسسواراتك.

المناسبة تستحقّ أن تتجمّلي لها. أنت على موعد مع عطر حبّ جديد. وحتى إن لم يجئ الحبّ، عليك أن تخترعي للغياب عطرًا جميلاً يجمّل انتظارك.

يظلّ أحلى عطر وأروعه على الإطلاق ذاك الذي اخترعه GERLAIN صاحب الماركة الشهيرة التي تحمل اسمه. حين في الأربعينيّات، من القرن الماضي ابتكر عطرًا لامرأة واحدة، ولليلة واحدة، يهديه لمن أحبّ من النساء. (كنت أعتقد أنّه بذلك يهديها العطر الفريد للحبّ، كمثل فستان زفاف يُصنع على قياس امرأة ليُرتدى مرّة واحدة. الآن أتساءل ماذا لو كان يهديها عطر النسيان؟).

عطر لا وعود له، لا مستقبل، لا التزامات، عطر لا ذاكرة له، كشهرزاد يتوقّف بوحه عند الصباح. من مزاياه غير المعلنة أنّه لا يعلق بذاكرة الرجل ويعيده إلى عطر امرأته الأولى.

* * *

قلب في تلفّته إليك يخونني

حيث تمضي يلحق بك

ممسكًا بتلابيب عطرك

أحبطي مؤامرة عملائه!

ومن عجب أنّي أحنّ إليهم وأسأل عنهم من لقيت وهم معي

وتحتاجهم عيني وهم في سوادها ويحتاجهم قلبي وهم بين أضلعي

أعترف. كتبت هذا الكتاب لممازحة النسيان. ذلك أنّنا لا نستطيع منازلة الذاكرة بجدِّيّة. هي تملك أسلحة لا قدرة لنا عليها.

تهزمنا الذاكرة لأنّ لها عملاء يقيمون فينا، يديرون شؤونها لحساب حبيب، يتآمرون علينا لصالحه. كلّ حواسّك تعمل عملاء عنده، البعض بمرتبة ضابط اتّصال.

كان بيغين يقول «كلّ ٥ لدى عرفات له منهم ثلاثة ولي اثنان».

إذا كانت إسرائيل بعميلين اثنين من كلّ خمسة مقرّبين لعرفات استطاعت نسف القضيّة الفلسطينيّة، فما بالك إن كان الخمسة جميعهم عملاء، ويقيمون فيك، ويعملون لصالح رجل غريب يقول إنّه حبيب. في كلّ حرب كسبتها إسرائيل، ما كانت لتنجح لولا توفّر الخونة والجواسيس. حواسّك توفّر لحبيبك الانتصار عليك. تكتشفين ذلك متأخّرًا كما في كلّ قصص الجاسوسيّة!

فقط عندما تحاولين نسيان رجل، يكشف العملاء عن وجوههم. أنت لست في حرب ضدّ رجل، بل ضدّ جيوش من KGB وCIA وGESTAPO. لقد تركهم يخوضون الحرب نيابة عنه داخلك ومضى.

إنّهم يقيمون في نخاعك الشوكي، في دورتك الدمويّة، في الشبكة البصريّة لعينيك، في خياشيم أنفك، وفي مسامّ جلدك.

ما الفرق بين الحبيب وبين المحتلّ إذن؟ وقد أقام فيك مستوطنة في مساحة كيانك!

هو بصرك وشمّك ونظرك. هو ما تتفوّهين به وما تهذين حين تصمتين. هو جلدك فكيف جلدك تخلعين؟ هو خلاياك ومسامّك. هو شيطان أرقك.. وإله نعاسك. هو السمّ الذي تتناولينه على مدار النهار خارج الوجبات. وهو الوجبة التي تقتاتين بها لتبقي على قيد الحياة.

حواسّك الخمس مجنّدة على مدار الليل والنهار لتدافع عنه، تطالبك بإحضاره من السماء أو من تحت الأرض.

أكبر فاجعة عندما تدخلين معركة النسيان اكتشافُك أنّ حواسّك خانتك، وأنّ عليك إن شئت إخراج هذا «الجنّ العاطفي» من جسدك، أن تعلني الحرب على نفسك، أن تقولي «لا» بملء صوتك لحاسّة تذكّرك بعطره، وأخرى بصوته، وأخرى بمذاق قبلته، وأخرى بلمسته، وأخرى بطلّته.. بمشيته.. بضحكته.. بجلسته.. بثيابه.

إنّك، باختصار، تخوضين حربًا عالميّة بمفردك ضدّ جيوش قوّات الحلفاء مجتمعة!

كان الله في عونك.. يا مرا!

برغم هذا لا تيأسي. جلّ الذين تصادفينهم في الحياة خاضوا مثل هذه المعارك وانتصروا فيها.. تقريبًا!

* * *

اشتقت لك.. يلعن أبو ليل فراقك

الفنّان فيصل الراشد (من رسالة لحبيبته)

ذكرياتي.. يا ذكرياتي

لا ننسى شيئًا ممّا نودّ نسيانه. نحن ننسى كلّ ما عداه

بوري سفيان

أن تنسي شخصًا أحببته لسنوات لا يعني أنّك محوته من ذاكرتك. أنت فقط غيّرت مكانه في الذاكرة. ما عاد في واجهة ذاكرتك، حاضرًا كلّ يوم بكلّ تفاصيله. ما عاد ذاكرتك كلّ حين. غدا ذاكرتك أحيانًا. الأمر يتطلّب أن يشغل آخر مكانه، ويدفع بوجوده إلى الخلف في ترتيب الذكريات.

ذلك أنّ الذكريات لا تموت. هي تتحرّك فينا، تخبو كي تنجو من محاولة قتلنا لها. ثمّ في أوّل فرصة تعود وتطفو على واجهة قلبنا، فنختفي بها كضيف افتقدناه منذ زمن بعيد، ومرّ يسلّم علينا ويواصل طريقه.

الذكريات عابر سبيل، لا يمكن استبقاؤها مهما أغريناها بالإقامة بيننا.

هي تمضي مثلما جاءت. لا ذكريات تمكث. لا ذكريات تتحوّل حين تزورنا إلى حياة. من هنا سرّ احتفائنا بها، وألمنا حين تغادرنا. إنّها ما نجا من حياة سابقة.

ليس بإمكان أحد الادّعاء أنّه من يتحكّم في ذكرياته، ولا هو يحتاج أن يبحث عنها في الزوايا خلف عنكبوت الزمن. هي التي تتحكّم فيه.. وهي التي تبحث عنه حين تشاء.

يؤكّد رأيي هذا، كتابُ المحلّل النفسي باتريك استراد «هذه الذكريات التي تحكمنا»، حين يقول «الذكريات تمثّل بشرة جلدنا الداخليّة، وتصوغ شخصيّتنا من دون أن ندري. الذكريات التي نتذكّرها في مناسبات معيّنة هي مفتاح الحلّ لكثير من المشكلات التي تصبح حياتنا».

بالنسبة للمؤلّف، الذكريات لا تقيم فينا بل هي تغلّف حياتنا؛ إنّها كلّ ما حولنا من أشياء نحيط أنفسنا بها، ما نلمسه، ما نلبسه، ما نحتفظ به، ما لا ينفع لشيء ونرفض أن نلقي به. إنّها فخّنا!

الذكريات هي هويّتنا الأخرى التي نخفي حقيقتها عن الآخرين، حتى أنّ الكاتب يطلق شعارًا جديدًا «قل لي ماذا تتذكّر.. أقل لك من أنت» وهو أصدق شعار نفسي قرأته. جرّبوا هذه اللعبة. تعرّفوا على أنفسكم من خلال سؤالكم: ماذا تتذكّرون بالضبط. أيّة ذكريات نجت من النسيان خلال عبوركم متاهات العمر.. أيّة ذكريات لا تفارقكم على مدى الحياة تلك هي بالذات الذكريات التي تتحكّم في حياتكم!

* * *

النسيان يمتلك السلطة ومعنى السرّ

موريس بلانشو

اصنعي من الذكريات.. تبّولة!

«إذا تكرّر وجود رائحة البصل في يديْ زوجتك، فاعلم أنّها تتدرّب على استخدام السكّين. . تُرى لماذا؟!»

نموت قاصرين من دون أن نبلغ السن القانونيّة للنسيان. لا نستطيع شيئًا ضدّ الذاكرة؛ إنّها تُقيم في ثنايا الحفريّات العاطفيّة، لذا رأى البعض أنّ الحلّ في التخلّص من الذكريات أوّلاً بأوّل، كي لا نمنحها فرصة اختراقنا والتمدّد فينا؛ فما الذكريات سوى تراكم الحاضر.

النيويوركيّون اخترعوا طريقة جديدة لرمي كلّ ما يريدون نسيانه، والتخلّص منه، من ذكريات العام الماضي. فقد وضعوا بمناسبة نهاية السنة مفرمة كبيرة في ساحة «تايمز سكوير» راحوا يلقون فيها، ببهجة احتفاليّة، كلّ ما لا يريدون أن يكون له مكان في حياتهم بعد الآن.

رجل يرمي صورة صديقته التي تخونه، وآخر يرمي ديونه، وامرأة تقذف هاتفها الخلوي، وأخرى هدايا من حبيب سابق، ونساء

يخطبن ويقسمن على النسيان، ورجال يلعنون ويضحكون ويصفّقون.

بعد منتصف الليل، في الليلة الأخيرة من السنة، كانت الذكريات القبيحة قد انتهت في حاوية القمامة، وغادر الناس الساحة إلى بيوتهم مبتهجين، بعدما تخلّوا عن الذكريات التي تزعجهم.

لا تحتاجين إلى انتظار نهاية السنة لتلقي بما يزعجك إلى «مفرمة الذكريات». المناسبات لا تنقصك. كأن تكون ذكرى لقائك به لأوّل مرّة، أو مرور عام على صمته وانقطاعه عنك، أو ذكرى آخر لقاء جمعكما، أو ذكرى طعنته وحِدادك عليه.

في غياب «المفرمة» ادخلي إلى مطبخ الحبّ وافرمي كلّ ما أصبح مصدر إزعاج وألم في حياتك. اصنعي من الذكريات المفرومة «تبّولة». انقعي برغل الأمنيات التي يبست في الغياب. قصّي رأس بندورة جبليّة لها مذاق شهوات bio. استعيني بسكّين ماضٍ لفرم الماضي مرّة واحدة، كي لا تقعي في فخّ الاجترار.

طبعًا، لا يمكن أن تشتري النسيان بثمن ربطة بقدونس، لكنّ المهمّ ليس البقدونس، إنّما السكّين. المهمّ أن تفرمي الذكريات التي تفرمك يوميًّا دون رحمة.

أنصحك أيضًا بفتح برّاد الماضي. ألقي بكلّ ما تعفّن فيه دون أن تنتبهي لذلك، كلّ ما انتهت صلاحيّة تناوله ولا جدوى من الاحتفاظ به. المعلّبات نصف المفتوحة لأمنيات غطّى الصوف وجهها. أحزان طريّة كجبنة الكاممبير المستوردة من بلاد ما عادت تصدّر

المقبّلات الراقية لموائد حبّك، وستفتح شهيّة الفئران لزيارتك ليس أكثر.

أمّا ما بقي عندك من خضار في برّاد الذكريات، فاطبخيها كسكسي، وادعي صديقاتك للعشاء من دون أن تخبريهنّ بالمناسبة. زيّني مائدة النسيان بشمعدان. تأمّلي الشمع وهو يذوب واسعدي. هكذا كنت قبل اليوم.

لقد أنقذتك «المفرمة» من محرقة الماضي. ولا بأس إن بكيت وحدك في آخر المساء.

«كلّ ما تنزل دمعة تضوّي شمعة» يقول مثل جزائري!

نساء في مهبّ النسيان

والله ما خنتك

ولا ظننت قلبي

سيقوى على الحياة بعدك

لكنّه الخذلان

علّمني أن أستغني عنك

أصبحت فقط أنسى أن أسهرك

أأبى أن أذرفك

أكثر انشغالاً من أن أذكرك

وأكبر الخيانات النسيان

أخذنا موعدًا

في حيّ نتعرّف عليه لأوّل مرّة

جلسنا حول طاولة مستطيلة

لأوّل مرّة . .

ألقينا نظرة على قائمة الأطباق

ونظرة على قائمة المشروبات

ودون أن نُلقي نظرة على بعضنا

طلبنا بدل الشاي شيئًا من النسيان

وكطبق أساسي كثيرًا من الكذب

* * *

وضعنا قليلاً من الثلج في كأس حُبّنا

وضعنا قليلاً من التهذيب في كلماتنا

وضعنا جنوننا في جيوبنا . .

وشوقنا في حقيبة يدنا

لبسنا البدلة التي ليست لها ذكرى

وعلّقنا الماضي مع معطفنا على المشجب

فمرَّ الحبّ من دون أن يتعرّف علينا (. . .)

* * *

عندما تُرفع طاولة اللهفة

كم يبدو الجلوس أمامها أمرًا سخيفًا

وكم يبدو العشّاق أغبياء

فلِمَ البقاء؟ . . كثيرٌ علينا كلّ هذا الكَذب

ارفع طاولتك أيّها الحبّ

آن لهذا القلب أن ينسحب

من نصّ «حان لهذا القلب أن ينسحب»

باريس ١٩٨٦

هذا المخلوق الهاتفيّ الذي يعبث بحياتك

لا عمر لها

تبلغ سنّ الرشد بقبلة

وتدخل سنّ اليأس

بانقطاع هاتفيّ

كان الله في عون امرأة

أدزكها الحبّ على شفتيك

تنبيه:

أتمنّى ألاّ تفوّتي قراءة هذا الفصل، لأنّك حتمًا ستحتاجين إلى العودة إليه ما دمت حيّة، حتى لا تموتي في حادث صمت معلن، على يد رجل قرّر فجأة أن يقتلك بسكتة هاتفيّة، بعد أن سعى خلال أشهر، وربّما سنوات، إلى جعلك في حالة إدمان وتبعيّة مرضيّة لصوته.

تُجمع النساء على أنّ الأشياء تبدأ غالبًا هكذا:

رجل كأنّ به مسًّا من تلفون، لا تدرين، وهو يجتاح حياتك هاتفيًّا، نسبة العقل فيه من نسبة الجنون. رجل يهاتفك بعدد ساعات النهار. يبعث لك رسالة حيثما ذهب، ليقول لك شيئًا مهمًّا لا يحتمل التأجيل: يحتاجك كلّ لحظة.

«أنا خارج البيت.. في قلبك»

«أنا في زحمة السيّارات وقلبي مزدحم بك»

«أنا عائد إلى البيت.. إليك»

«أنا أشتري خبزًا.. كلّما اشتريت خبزًا أكلتك»

«أنا أتعشّى مع أصدقاء ولا جوع إلاّ إليك»

«سأخلد للنوم.. في عينيك»

«صباح الشوق يا كلّ صباحاتي»

وتمضي الأيّام هكذا وأنت ترافقينه بكرة وأصيلاً... جملة وتفصيلاً، حيثما حلّ وفي كلّ ما يفعل، وكأنّك مشتركة في خدمة «الخبر العاجل» التي تزوّدك بالأخبار أوّلاً بأوّل على مدى الليل والنهار.

ولأنّه يهاتفك كلّ حين، قد يحدث أن يجد هاتفك مشغولاً. وهنا تولد نواة المشكل الذي ستُبنى عليه مشاكل تتوالد أمام اندهاشك من حيث لا تدرين.

فهذا الحبيب الذي تحوّل بحكم المسافة إلى «مخلوق هاتفي»

يرى في انشغال هاتفك انشغالاً عنه.. وربّما خيانة له. فالهاتف.. «هاتفه»، وليس من المفروض أن يكون لك شغلٌ عداه، حتى وإن كنت محرِّرة في قناة إخباريّة عالميّة.

تسألني صديقتي وهي على حافّة البكاء «ماذا أفعل؟ لقد بدأت المشاكل بيننا.. كلّما وجد الهاتف مشغولاً قامت القيامة وانقطع عن مهاتفتي يومًا أو يومين». أُبشّرها «ذات يوم سينقطع لأيّام.. ثمّ لأسابيع.. وربّما لأكثر..». تصيح «لكنّني أحبّه.. أنت تدرين كم أحبّه ليس في حياتي غيره. إنّه حبّ حياتي لا أريد أن أخسره».

لكن يا عزيزتي منذ اللحظة التي دخلت سوسة الشكّ إلى قلبه أصبحت مهدّدة بخسارته. سيصدّق السوسة ولن يصدّقك!

(بين فترة كتابة هذا الكتاب وإرساله إلى المطبعة تحقّقت نبوءتي وخسرت هذه الصديقة رجل حياتها!)

لقد كان العشّاق أسعد وأكثر طمأنينة وثقة بعضهم بالبعض الآخر.. قبل أن يأتي ألكسندر غراهام بيل ـ لا سقى الله قبر والد ولده ـ ويخترع لنا الهاتف. يكفيه لعنة أنّه ما استطاع أن يتّصل ولو مرّة هاتفيًّا بأمّه ولا بزوجته.. لأنّهما كانتا مصابتين بالصمم!

عبثًا أشرح لصديقتي أنّ كما الثورة تأكل أبناءها يأكل الهاتف عشّاقه. على يده يكون حتفهم. وعليها الاستعداد منذ الآن لقطع حبل السرّة الهاتفي الذي يوصلها بذلك الرجل على مدى الليل والنهار.

في ذلك العشاء الذي جمعنا، دمعت عيناها لأنّ صديقة أخرى

من إحدى نجمات الإعلام الخليجي ـ أو لعلّها نجمة النجمات ـ أكّدت لها رأيي وهي تفاجئنا بالاعتراف أنّها، منذ ثلاث سنوات، تعيش خارج مجرّة العشّاق للسبب نفسه. صحنا مندهشات «ولم تحبّي أحدًا منذ ذلك الحين؟!» قالت « لا . . كان هو حبّ حياتي».

أمّا هو فما صدّق أن تكون امرأة على ذلك القدر من الجمال والنجوميّة والشهرة وفيّة له. قالت له السوسة «كيف تخلص لك وحولها هذا القدر من الأثرياء والمشاهير!». المؤلم حقًّا أنّه لا يدري أنّها ما زالت على عصمته. أكان سيسعد أم سيحزن لكلّ هذا الهدر؟ وكيف تراه فسّر قرارها بعدم الاتّصال به أبدًا مذ انقطع فجأة عن مهاتفتها؟ ربّما ظنّها مشغولة بحبّ آخر، وهاتفها كقلبها خارج الخدمة، فتمادى في القطيعة. . وفي الخيانة.

تواسيها الصديقة الأخرى:

ـ لا تحزني. . أؤكّد لك أن لا امرأة أجمل ولا أشهر منك أخذت مكانك. إنّه يبحث عن الأمان مع امرأة متوسّطة في كلّ شيء. عادة ما يبحث الرجل عن امرأة عاديّة تكون له ملاذًا؛ لا يريد حبًّا عظيمًا بل امرأة تُعطيه إحساسًا بالعظمة.

تردّ المسكينة:

ـ والجميلات الناجحات إذن. . من لهنّ؟

ـ لهنّ الناجحون الواثقون! ردّت الصديقة الأخرى.

عدت من ذلك العشاء مثقلة بالغيوم العاطفيّة. لا أفهم كيف تتضافر جهود سوء الفهم وسوء الظنّ، وسوء الحظّ، لاغتيال كلّ

هذه القصص العاطفيّة الجميلة، من دون أن يدري الطرف الآخر كم كان آثمًا وظالمًا في مدّه وجزره الهاتفي.

دون أدنى شعور بالذنب، تموت قلوب النساء بسبب رجل دخل حياتهنّ بكلّ ذلك الاجتياح، ثمّ غادرها بكلّ تلك القسوة، من دون أيّ شرح، ليتسلّى بتحطيم قلب امرأة أخرى يهرب إليها من الأولى.. وهلمّ جرّا.

أيكون فائض الكلام بين العشّاق قد قتل الحبّ؟ فائض التفاصيل التي يحتاجها الحبّ ليحيا ولكنّه لا يحتاجها ليحلم.

الحبّ يحتاج إلى غموض، إلى أسرار صغيرة لا يترك لها الهاتف «المرضي» مساحة، لذا يصبح حبّ العشّاق أقوى وأعنف بعد الانقطاع الهاتفي. إنّه يُجبر كلّ واحد على صنع حياة افتراضيّة للآخر بما يعرف عنه من عادات سابقة ومن أسرار، فيعود الحبّ على ألمه جميلاً كما في الأزمنة الغابرة. في العواطف الكبيرة لكبار العشّاق فقط لا تقتل القطيعة بل تحيي. إنّها تؤجّج الحبّ وتزوّده بالوقود الذي يحتاجه: تحدّي الزمن، بالوفاء لشخص لا تدرين ما هو فاعل على الطرف الآخر من الحياة، لأنّ ما تعرفينه عنه من عادات، وما قال لك على مدى أشهر وأعوام، يجعلك تثقين في معدنه.

برغم ذلك، كم من الهواجس والوساوس ستراودك أمام صمته! فالصمت مساحة الالتباس العاطفي. ستشكّين مع الوقت في كلّ إشارة حتى في الصوت النسائي الآلي الذي يردّ عليك.

«أكره المرأة التي تقول: إنّ الاتّصال بالرّقم المطلوب غير ممكن حاليًّا. كيف أثق بأنّها ليست من مجموعة النساء اللواتي يحطن بك!» تقول ماري القصيفي.

* * *

«ارتفاع قيمة فاتورة المكالمات الهاتفيّة ليست بالتأكيد دليلاً على ارتفاع قيمة الكلمة!»

ذاك الكبرياء القاتل للحبّ

يبلغ الحبّ القمّة متى تنازلت المرأة عن عنادها والرجل عن كبريائه

أنوري دي بالزاك

لا تنازلي رجلاً بتقديم مزيد من التنازلات. في التبضّع، كما في الحبّ، الرجل لا يحبّ التنزيلات، يريد ما ندر وغلا.

ذات يوم، أكيد، سيختبر معدنك بقدرتك على الصبر على انقطاع كأنّه قطيعة. قد يدوم اختفاؤه أيّامًا أو أسابيع أو أشهرًا، وقد يكون النهاية التي لا تدرين بعد بها.

فليكن.. ادخلي حلبة صمته. ستكبرين بالصبر عليه. استمتعي بالانقطاع عنه. لا تعيشي قطيعته عذابًا؛ عيشيها تمرينًا في الكبرياء وإعلاء شأنك. «ما أقوى من الحبّ سوى الكبرياء عند أمنع النساء».

يومًا بعد يوم، ستتوقّفين عن عدّ الأيّام التي لم تسمعي صوته

فيها، والمناسبات والأعياد التي أخلفها قصدًا، برغم أنّه عايد أناسًا لا يعنون له ما تعنين.

لن يكون الأمر سهلاً، لكنّ غدره بك هو وقود تحدّيك، فتزوّدي به ما استطعت. عليك أن تكسبي عادات جديدة لقتل عاداتك القديمة. وقبل هذا كلّه، عليك أن تغذّي إحساسك بالأنفة في مواجهة من كان أقرب إنسان إلى روحك، وغدا ألدّ أعدائك لأنّه يملك مفاتيحك، ويعرف المداخل غير المحصّنة لقلبك. ويعرف كم أنت ضعيفة تجاهه.

لا تضعفي وتطلبي رقمه، لأنّك ستخسرين عزّة نفسك من دون أن تكوني قد كسبته.

في هذه المزايدات بالذات على الكبرياء، يموت الحبّ الكبير أرخص ميتة، من أجل إعلاء شأن عاشقين يتلوّعان ويشقيان عن حماقة في الوقت نفسه، في المنازلة الثنائيّة للفوز بالمرتبة الأولى في الجفاء حدّ الموت! «كلّنا أرقام يا عزيزي، فلندع الحياة تجمعنا معًا، قبل أن يطرحنا الموت أرضًا».

لا أعرف جريمة أكبر من هذه تجاه أنفسنا وتجاه الحبّ، ولا أعرف خسارة أكثر فداحة وحماقة.

ولكن ما دامت هذه اللعبة الإجراميّة هي التي يحلو للرجال أن يلعبوها معنا، لا نملك إلاّ أن ننزل إلى الحلبة ونكسب الجولة، حتى لو اقتضى الأمر كيّ قلبنا فـ « آخر الدواء الكيّ!».

لي صديقة هزمها الشوق، وخانتها يدها بعد أسابيع من القطيعة،

فطلبت رقم الرجل الذي كانت تحبّه. وحين قطع الهاتف في وجهها، أشعلت سيجارة وكوت بها يدها اليمنى، حتى كلّما رأت آثار الحريق على يدها كرهته ورفضت يدها أن تطلبه مجدّدًا.

راح يتمادى صدًّا لأنّه اعتقد أنّه، كعادته، بإمكانه أن يذهب بعيدًا في ظلمها، ثم يجدها في انتظاره متى عاد. ما تخيّل لحظة أنّها هذه المرّة لن تنتظره، فقد دخل إلى حياتها رجل توّجها أميرة، وأحبّها ودلّلها كما لم يفعل رجل، وعشقها حدّ تقبيل أصابع قدميها، ولم يلحظ يومًا آثار الحريق على يدها.

في آخر أخبارها، جاء الحبيب الأوّل من بلاده ليودّعها وهو على مشارف الموت، بعد أن تدهورت صحّته بسبب مرض فاجأه وهو في عزّ رجولته، وكامل عنفوانه. قال لها إنّه خلال أربع سنوات ما نسيها يومًا، وإنّه ما أحبّ سواها.

وما زالت صديقتي تبكي ولا تدري كيف عليها أن تتصرّف. هاتفتني تقول «عندي لك قصّة لا بدّ أن تكتبيها. تذكرين فلانًا.. لقد عاد».. صحت «لا، معقول!».. قالت «عاد يودّعني».. قلت «أما افترقتما منذ سنوات؟».. قالت «يودّعني هذه المرّة لأنّه قد يموت».

عندما تزوّج في بلاده امرأة غيرها ما ودّعها. في كلّ بلاد سافرنا إليها معًا، كنت أراها تبكيه. كلّما رأت امرأة تحدّث حبيبًا على الهاتف، كلّما استمعت إلى أغنية من بلاده، كلّما تزوّج اثنان.

صديقتي التي كانت قبل سنوات تبكي بسبب ظلمه وهجره،

عادت في عزّ حبّها الجديد تبكي عليه. عرضت عليه أن تعيش ما بقي من عمره معه، أن ترافقه إلى مستشفيات العالم. أقسمت له إنّها بمعجزة حبّها قادرة على شفائه، لكنّه أجابها أنّه كان يريدها زوجة لا ممرّضة، وغادر إلى قدره.

لقد زاده مرضًا شعورُه بوجود حبّ آخر في حياتها جهدت لإخفائه عنه، كي لا تزيد من ألمه.

ثمّة نوعان من الشقاء؛ الأوّل ألاّ تحصل على ما تتمنّاه، والثاني أن يأتيك وقد تأخّر الوقت وتغيّرت أنت، وتغيّرت الأمنيات، بعد أن تكون قد شقيت بسببها بضع سنوات!

ما فتئت أسأل نفسي: من الظالم أو الأكثر ظلمًا في هذه القصّة؟

لعلّ القدر الذي يملك كلّ الأجوبة، أجاب بأنّ حبيبها كان الأظلم لنفسه ولها. لقد اعتقد أنّ بإمكانه أن يتخطّى حبًّا كبيرًا. ويبني حياة زوجيّة على أطلاله. لكنْ أمام الموت وفي لحظة الصدق الحقيقيّة، ارتفع صوت القلب ليطالبه بزوجة قلبه. لقد اكتشف جريمة أن نموت بعيدين عن قلبنا.

لماذا كابر إذن كلّ تلك السنوات؟

لماذا كان يشقى ويُشقيها به؟

لماذا كان يبكي في السرّ.. ويُبكيها؟

لماذا، وهو البدويّ الغيور كغزال عربيّ، تركها لرجل غيره؟

من الأرجح أنّ احتمال خسارتها لم يكن في حسبانه. فالرجل يعتقد أنّ المرأة موجودة أصلاً لانتظاره، وأنّها أضعف من أن تأخذ

قرار الانفصال أو تلتزم به. لكنّ ثمّة حدًّا يصبح فيه الإخلاص إهانة للذات.

وأشهد أنّها أخلصت له حتى بعد الفراق. أخلصت كما تخلص امرأة عصريّة تقع في حبّ شيخ قبيلة، وما كان شيخًا، كان رجلاً أحبّها ببداوة، وما توقّع كم بإمكان امرأة أن تعطي، وكم في وسعها أن تنتظر حتى يأتي القدر يومًا ويهديها حبًّا يُنسيها شقاءها.

يعتقد الرجل، وهو يتخلّى عن حبّ حياته، أنّه ينتصر لكبريائه. فتقبّل الخسارات الفادحة، لمجرّد رفع التحدّي ليس أكثر، هو جزء من فحولة تاريخنا العربي، الذي يضحّي فيه الحاكم المستبدّ بوطن ويسلّمه للمحتلّ، حتى لا يخسر ماء وجهه ويتنازل عن عناده!

يأبى الرجل أن يعود إلى حبّه الكبير بعد قطيعة معتذرًا ومنكسرًا. تربيته تمنعه أن يرى في لحظة ضعفه أمام الحبّ أجمل لحظات عمره على الإطلاق.

إنّه الحبّ الذي كان يمكن أن يولد مرّة أخرى من رماده، ومن غيابه وجراحه، أكثر جمالاً ونضوجًا.

أكثر من مرّة يتمنّى لو طلب رقمها. هو لا يتوقّع أن تشهق امرأة على الطرف الآخر للخطّ، وتعطيه من الحبّ أكثر ممّا يتوقّع. ذلك أنّ المرأة تعشق من يعود إليها ليقول «لا حياة لي بعيدًا عنك». في الواقع هي لا تزدري إلاّ الطغاة، والجبناء أمام العواطف.

غير أنّ الرجل المتشاغل عن الحبّ، المتجبّر على الحبيبة، لا يكتشف، إلاّ بعد فوات الأوان، صدق تلك النصيحة التي جعلت

منها إحدى المنظّمات السويديّة المدافعة عن الروابط الأُسريّة شعارًا.

«لن تندم وأنت على فراش الموت، لأنّك لم تحصل على ترقية، بل لأنّك لم تقض الوقت الكافي مع من تحبّ».

لقد وضع في حسبانه كلّ شيء إلاّ الموت.

الموت الذي تموت في حضرته كلّ الأكاذيب، وتنتهي به المزايدات العاطفيّة، لا كبرياء أمامه لكبير. إنّه الحقيقة التي يصغر أمامها الجميع.

لحظة يحضر الموت، هل يبقى لرجل من صوت ليقول لامرأة بينه وبينها قارّات من الفراق والتحدّي إنّه أحبّها حدّ الموت!

أمّا الأكثر ألمًا فهو أن ترحل هي قبله، وتتركه ما بقي من عمر ينزف ندمًا، لأنّه لا يدري ماذا يفعل بعد الآن بكلّ الكلمات التي لم يقلها لها وستموت معه.. إن لم تقتله.

أمام قصّة صديقتي التي ما زالت تعيشها بكاءً كلّما هاتفتني، فكّرت أنّ على العشّاق المتناحرين، المزايدين على الأذى بشراسة الحياة وجبروتها.. أن يتوقّفوا ولو ليوم، ليفكّروا في احتمال موت أحدهما خلال أشهر القطيعة، وسنواتها.

ليستحضروا بخيالهم جثّة الحبيب، هامدة باردة قبل أن تُسلِمها الأيدي إلى التراب، ليبكوه حيًّا حتى لا يبكوه ميتًا، عندما يكون الوقت قد تأخّر إلى الأبد، وما عاد له من عيون ليرى دموعهم عليه. عندما لا يعود لطعناتهم على جسده من إيلام.. سيغدو الألم من

نصيب الذي كان ممسكًا بالخنجر!

كم من قصص حبّ كان يمكن إنقاذها لو فكّر العشّاق بمنطق الموت لا بمنطق الحياة!

فهل يعتبر المحبّون؟!

* * *

عندما أحاول أن أعرف ما إذا كنت أحبّ شخصًا ما أتصوّره ميتاً. وأراقب كيف يستجيب جسمي لذلك.

الإعلاميّة إيمي جينكز

يا ظالم لك يوم...

تنام عينك والمظلوم منتبه   يدعو عليك وعين الله لم تنم

حكى الأصمعي أنّه رأى رجلاً يُدعى أبا السائب من بني مخزوم متعلّقًا بأستار الكعبة وهو يقول: اللّهم ارحم العاشقين، واعطف على قلوب المعشوقين بالرأفة والرحمة، يا أرحم الراحمين. قال الأصمعي: يا أبا السائب أفي هذا المقام تقول هذا المقال؟

قال: إليك عنّي! الدعاء لهم أفضل من حجّة بعمرة، ثم أنشأ يقول:

يا هجر كفّ عن الهوى ودع الهوى   للعاشقين يطيب يا هجر

ماذا تريد من الذين جفونهم   قرحى وحشو صدورهم جمر

وسوابق العبرات فوق خدودهم   هطلاً تلوح كأنّها القطر

صرعى على جسر الهوى لشقا   ئهم بنفوسهم يتلاعب الدهر

قرأت هذه القصّة بعدما أدّيت العمرة قبل سنة من الآن. ولو علمت آنذاك أنّه يجوز للمحبّين أن يرفعوا لله شكواهم، ويدعون وهم في بيته على أحد، كما يدعون بالخير على آخر، لاستفدت من

عمرتي لتصفية حساباتي. خاصّة أنّ من رافقنني كنّ يقلن لي «اطلبي.. اطلبي ما تشائين. اسألي الله كلّ شيء يخطر في بالك». وكنت أرى الناس يطوفون مردّدين أدعية، ولا أدري ما أطلب من الله غير المغفرة والصحّة والعافية لي وللمسلمين. دائمًا استحيت أن أسأل الله شيئًا له علاقة بالحياة الدنيا. كنت أقول إنّ الله يدري ما أُريد، ولو شاء لأعطاني إيّاه من دون أن أقايضه عليه بصلاتي وصيامي. حتى قرأت أنّ الله لا يحبّ من لا يسأله، ويرى في سلوكه تكبّرًا يستحقّ عليه العذاب.

يا للمصيبة! الأمر إذن أصبح يستدعي إعادة نظر، وربّما إعادة العمرة.

وفي عمرتي القادمة سأستعدّ، إن شاء الله، للأمر بطريقة عمليّة، فأحمل معي قائمة واضحة كاملة بأسماء مكتوبة بلونين: الذين أدعو لهم بالأزرق، والذين أدعو عليهم بالأحمر، خشية أن تتلخبط عليّ الأسماء وأنا بين يدي الله، خاصّة أنّ إحداهنّ زادتني خوفًا حين قالت لي إنّ الدعوات قد تضيع في بريد السماء، إن لم تتوفّر فيها شروط الدعاء، ومنها أن ترفقيها باسم أمّ الذي تدعين له.. أو عليه! وقالت ثانية «بل اسم أبيه هو الأهمّ، فالمسلم يُنادى عليه يوم القيامة على اسم أبيه».

تصوّروا كلّ هذه الدعوات غير محدّدة الهويّة، كيف بربّكم تجد طريقها إلى السماء!

لا أصدّق أنّك تدعين لمحمّد في الجزائر، فتذهب دعواتك لمحمّد آخر في باكستان. وتدعين على عبد الله ولا تدرين على أيّ

واحد من الملايين الذين يحملون الاسم نفسه، من ماليزيا إلى الصومال، ستحلّ اللعنة.

في هذه الحالة، كلّما ندر الاسم قلّت نسبة احتمال أن ينتهي الدعاء عند غير الذي يعنيه الداعي.

وكنت سعدت لو كان الأمر كذلك، لاقتصار اسم أحلام عليّ، وعلى المطربة الإماراتيّة أحلام، كاسمَيْ علم.

فالدعوات حينها لا تخرج عن إطارنا نحن الاثنتين. ومن هذا المنطلق وجدتني معنيّة بها، وبدأ يراودني الشكّ في أن يكون كثيرٌ من دعوات الخير التي سعيت لجمعها على مدى حياتي قد انتهت عندها، بعد أن أعلنت أكثر من مرّة أنّ ثروتها ما شاء الله تقارب المليار دولار! أي أنّ بضعة أصفار ضوئيّة تفصلني عنها، برغم أنّها احترفت الغناء منذ خمس عشرة سنة فقط.. وأكتب منذ ثلاثين سنة! أو لعلّ النحس يُطارد الكتّاب!

بما أنّ دعوات الخير كفيلة بالضرّاء، فإنّ الأمر يحتاج إلى مبادرة من طرفها لإعادة توازن السرّاء في ما بيننا.

أمّا في حال رفضها لهذا الاقتراح، فأنا أطالبها بأن تعلن عن اسم أمّها، حتى لا أتلقّى نيابة عنها دعوات من يدعون عليها ممّن تشاجرت معهم على مدى مسارها الفنيّ، خاصّة أنّ الالتباس زاد بيننا مذ تمّ منحها دكتوراه فخريّة.. تصوّروا حتى إذا أراد أحدهم، لمزيد من الضمان لدعواته، أن يحدّد بأنّه يعني «الدكتورة أحلام» شخصيًّا.. فدعاؤه أيضًا سيكون من نصيبي!

ممّا يجعلني أفكّر في أن أتنازل عن هذا اللّقب الذي أمضيت خمس سنوات في متاهات السوربون للفوز به، والذي في جميع الحالات لم أستعمله في حياتي. غير أنّي لا أستطيع أن أتنازل عن اسمي لكونه، في ما يخصّني، هو اسمي الحقيقي وهذا سبب إضافي لتنتهي دعواتها عندي!

الأمر إذن أكثر تعقيدًا ممّا يبدو. فإن شئت الدعاء على الرجل الذي عذّبك وأبكاك وطلّع روحك.. «وطلّع عينك» كما يقول المصريّون، عليك أن تكوني مسلّحة باسم أمّه، وهذه لعمري «أمّ المعارك» و«أمّ المصاعب». كيف تطلبين من رجل اسم أمّه إن لم تكن حماتك أو مشروع حماة!

هنا كلّ واحدة وشطارتها.. وكلّ واحدة وغباء الرجل الذي عليها أن تَفْتَكّ هذا الاسم منه قبل أن يفتك بها!

وفي هذا الموضوع بالذات، لا أملك من أجلكنّ أيّة حيلة، فأنا لم آخذ الموضوع بعد مأخذ الجدّ. لكن لكوني روائيّة، قد أعود يومًا وأقترح عليكنّ بعض السيناريوهات لهذه المهمّة.

إنّ كلّ ذكائكنّ الأنثوي يُقاس بهذا الامتحان.

إحدى الصديقات تنصحكنّ بالمباشرة بسؤاله عن اسم أمّه، في أيّام التعارف الأولى. فسعادته حينها بحبّ جديد، تجعله جاهزًا في البدء للبوح بأيّ شيء. بما في ذلك الأسرار العسكريّة التي قد يكون اؤتمن عليها، ويهدّد الإفشاءُ بها أمنَ الدولة!

نصيحة أخرى من الصديقة نفسها، سجّلي الاسم فورًا في دفتر،

تحسّبًا ليوم ستعلنين عليه النسيان وتنسين، من جملة ما ستنسين في حملة «نفض الذاكرة»، اسم أمّه، في الوقت الذي تحتاجينه الأكثر.. لتدعي عليه!

أدري أنّ رجالاً يقرأون الآن هذه الصفحات ويقولون:

«أرأيتم كم النساء شرّيرات! أيعقل أنّ تلك المرأة الطيّبة الحنونة التي أحبّتنا هي الآن تتضرّع لله كي يهلكنا؟»

أُجيبهم (بالمكسيكي): بلى.. نعم.. أجل يا رجل.

إنّه الظلم الذي يُخرج امرأة عن طورها. ثمّ الأمر لا علاقة له بكوننا نساء؛ فقد سمعتُ رجالاً يدعون على حبيباتهنّ دعاء المظلومين. فبعض النساء ظالمات وجبّارات وخائنات أيضًا.

القضيّة هنا تتعلّق بكوننا عاشقات.

لا بدّ للأمر أن يطمئن الرجال. فأن تدعو عليك امرأة يعني أنّها ما زالت تحبّك، وأن تدعو مرّة لك ومرّة عليك يعني أنّها لم تفقد الأمل تمامًا في عودتك. ثمّ إنّها أيضًا تخاف أن يستجيب الله حقًّا لدعائها، فتجنّ وتكون أوّل من يموت حزنًا عليك!

لذا من نِعَم الله علينا أنّه لا يستجيب لدعاء المحبّين، لأنّهم أصلاً في حيرة من أمرهم، لا يدرون ماذا يريدون منه بالتحديد. ولنا في جميل بثينة، إمام العشّاق، نموذجًا عن تذبذب رأي المحبّين وتناقض مطالبهم ودعواتهم وصلاً وهجرًا.

فجميل بثينة الذي سُمّيَ على اسم حبيبته لفرط هيامه بها، والقائل:

إذا خدرت رجلي وكان شفاؤها دعاء حبيبٍ كنت أنت دعائيا

حدث أن فقد من لوعة الهجر صوابه، وراح يدعو على بثينة بالعمى. وهو دعاء يبدو كأنّه معمّم على الرجال منذ الأزل وإلى اليوم. فقد سمعت، قبل عشرين سنة أحدهم يدعو في الجزائر، على قريبة لي رفضت الزواج منه قائلاً «الله يعميك ولا تجدي من يقودك!».

أمّا جميل بثينة الذي لقي حبيبته بعد تهاجر كان بينهما، طالت مدّته، فتعاتبا ساعة، فقالت له: ويحك يا جميل تزعم أنّك تهواني وأنت الذي تقول:

رمى الله في عينيْ بثينة بالقذا وفي الغرّ من أنيابها بالقوادح!

فأطرق طويلاً يبكي، ثمّ قال بل أنا القائل:

ألا ليتني أعمى أصمّ تقودني بثينة لا يخفى عليّ كلامها

فقالت: وما حملك على هذه المنى؟ أوليس في سعة العافية ما كفانا؟

فكيف تريدون أن يستجيب الله لدعاء عاشق يدعو على الحبيبة بالعمى، ثمّ يندم على هول دعائه عليها، فيعود باكيًا ويدعو على نفسه أن يعمى عوضًا عنها، وأن تكون هي من تقوده!

تصوّرن لحظة لو أنّ الله استجاب في المرّتين لدعائه. أما كان الاثنان قد عميا.

أدري أنّ كلّ هذا الكلام لن يثني بعض القارئات عن الدعاء على

الحبيب، أو على الزوج الغادر، وأنْ لا شيء يطفئ حرقتهنّ غير البكاء بين يديّ الله، شاكيات ظلم من أحببن ومن أخلصن له فغدر بهنّ.

لأولئك أقول أبشرن «فمن ظَلَمَ العباد كان الله خصمه».

وعندما يكون الظلم حقيقيًّا، والجور والأذى كبيرين، فلا بدّ لله سبحانه أن يثأر لكُنّ ممّن مكر بكنّ وهو خير الماكرين.

للقارئات الموجوعات، الطالبات للسلوان والنسيان، أقدّم هذه الأدعية التي جمعتها لكُنّ من الصديقات، وبعضها من دعواتي الخاصّة.

والآن يا شاطرات، إن فزتنّ بالحصول على اسم أمّه، عليكنّ اختيار التوقيت المناسب لرفعها إلى السماء، فإن فاتكن شهر رمضان والعشر الأواخر وليلة القدر، عليكنّ بصلاة الفجر؛ فلا دعاء يُردّ لواقف بين يدي الله في هذه الساعة. صلّين ركعتين ثم ابكين بحرقة المغدور بها، وادعين بما شئتنّ من الدعوات المقترحة أدناه:

دعاء المؤمنة:

اللّهمّ اجعله نسيًا منسيًّا. اللّهمّ امسحه من قلبي كما مسحت الحزن من قلب محمّد.

دعاء المظلومة:

انتقم يا ربّ، يا منتقم، على كلّ لحظة صدق كنت فيها معه

صادقة وفيّة، فجازاني عليها غدرًا ومكرًا. لتعد إن شاء الله عليه ألمًا عظيمًا.

دعاء التقيّة:

اللّهمّ أنت خصمه، أوكلتك أمره فأشهدني فيه على جبروتك فقد كان يا ربّي جبّارًا.

دعاء الوليّة:

إنِ أوصلك أحدهم بأذاه حدّ المرارة، واتّهمك بما ليس فيك، وشهّر بك وافترى عليك، ليكن دعاؤك «اللّهمّ إنّي تصدّقتُ عليه بعرضي أنت الأدرى بي فكن وكيلي عليه».

دعاء المهبولة

اللّهمّ يا موضع كلّ شكوى، ويا سامع كلّ نجوى، ويا شاهد كلّ بلوى، أعده لي بجاه محمّد كما كان تمامًا، ببلواه ومصائبه، وغيرته وشكوكه ونوبات غضبه.

أبقني عبدة عنده، وأسيرة في قفصه الصدري، واملأ هاتفي برسائله، ويومي بتحرّيه وأسئلته، واشغلني عن كلّ شيء عداه، وكلّ طموح إلاّه، واجعل وقتي يمضي في تدليله، ونهاري في تجميله وإعلاء شأنه بين الناس، وأبقِ في قلبه الوسواس، وزد من غيرته عليّ وجنونه بي.

إنّي أرضى منك يا الله بكلّ ما بعد ذلك سيكون قدري من مصائب، فلا مصيبة أكثر فتكًا بي من هجره. فقد اشتدّت في غيابه فاقتي، وقلّت حيلتي وضعفت حركتي، واستيقظت ذاكرتي.

إنّي أدعوك يا الله دعاء المغبونة المهبولة، التي فقدت صوابها مذ رحل، وليس لكشف ما بها إلاّ أنت يا أرحم الراحمين.

لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين.

دعاء العاقلة (الكتير عاقلة):

اللهم اجعل أجمل أيّامي يوم حبّه لأوّل امرأة تصادفه. واجعل أجمل يوم في حياته يوم أحبّ رجلاً تصادف خصاله مقامي.

دعاء الشرّيرة:

(سمعت هذا الدعاء قبل عشر سنوات من صديقة لبنانيّة تدعو به على رجل أحبّته):

«الله يبعتلو شلل وطولة عُمُر».

دعاء المخدوعة:

(دعاء سمعته في المغرب العربيّ لإبطال الأداء الجنسيّ للرجل):

«يا ربّي اجعلو خيط والنساء حَيط.. وحشمو مع كلّ مرا».

وهو أفظع دعاء وأمكره. فكيف لخيط أن يخترق حائطًا! ومطلب هذا الدعاء أن «يتبهدل» الرجل مع كلّ امرأة حدّ استحيائه من نفسه!

أمّ الدعوات:

ستسألنني: وما هو دعاؤك أنت؟

دعائي يا عزيزاتي ظاهره خير، وباطنه شرّ:

«اللّهمّ أعطه من كلّ ما أعطاني أضعافه»، وهو دعائي على كلّ من ظلمني.

لا أعرف دعاءً أكثر إنصافًا وأكثر مكرًا في آن، لعلمك تمامًا كم كان أذاه كبيرًا، قياسًا إلى إحسانه، وغدره طاغيًا مقارنةً بخيره.

بإمكانكنّ الآن أن تخلدن إلى النوم مطمئنّات. أفضل للمرء أن ينام مظلومًا على أن ينام ظالمًا.

تنبيه هامّ:

ثمّة دعاء بين هذه الأدعية أتبرّأ منه، وأحذّركنّ من رفعه، خاصّة في العشر الأواخر، أو في صلوات الفجر، تحت طائلة المسؤوليّة، فإن استجاب له الله «راحت عليكم».

يبقى عليكنّ العثور عليه دون الاستعانة بصديقة!

* * *

اتّقوا دعوة المظلوم فإنّه ليس بينها وبين الله حجاب

حديث شريف

تذكّرِي ليلة الجدي!

لا الألم

بل مكانه بعد أن يزول

مكانه الذي له

يبقى موجعًا

لشدّة ما يزول

بسّام حجّار

ثمّة حكمة بدويّة يحلو لأمّي أن ترويها.

يقال إنّ امرأة من إحدى قبائل البدو المقيمين في الجنوب الجزائريّ ذهبت مرّة تزور ابنتها التي تزوّجت، وانتقلت للعيش في كنف قبيلة أخرى. ففرحت البنت بمجيء أمّها أيّة سعادة، وذبحت جديًا احتفاءً بها.

حين عاد زوجها في المساء ذهب، قبل أن يدخل الخيمة، يتفقّد أغنامه، فإذا بجدي ينقص من الحساب، فدخل على زوجته فوجدها

تعدّ العشاء، فراح يضربها ضربًا مبرّحًا لأنّها ذبحت الجدي.

من قهرها، تظاهرت الأمّ بالنوم ولم تتناول العشاء. وقبل الفجر شدّت الرحال إلى قبيلتها. بعد فترة جاءها مرسول بين القبائل يخبرها بوفاة زوج ابنتها.

فذهبت لزيارتها فوجدتها أرضًا تجذب شعرها، وتلقي الأتربة على نفسها، حدادًا وأسًى على زوج «تمنّت لو التراب غطّاها بعده».

فقالت لها الأمّ، وهي تراها في تلك الحالة «ابكي.. ابكي.. وزيّني بْكاك.. واذكّري ليلة الجْدِي». فتذكّرت المرأة حينها كم بكت على يد زوجها في ليلة الجدي يوم أبرحها ضربًا عن ظلم. فتوقّفت عن البكاء وقامت ونفضت عنها التراب. وسرى هذا القول حكمة بين النساء منذ ذلك الحين.

قبل أن تبكي رجلاً وتلطمي وتشقّي ثيابك، تذكّري «ليلة الجدي»، وتلك الكدمات التي اخترقت زرقتها قلبك، ذلك التجريح... وتلك الإهانات، التي كان الحبّ يغفرها ويخفيها، وها هي اليوم الذاكرة تعرّيها، بعد أن رفع عنها الحبّ الحصانة.

صديقة صحافيّة ظلّت تهذي بحبّ رجل كمجنونة وتصفه لي على مدى ثلاث سنوات، كما لو كان ابن زيدون في حبّه الخرافي لولاّدة بنت المستكفي. كان الأروع، كان الأصدق، كان ملكًا على الرجال، لكنّه كان في لحظات غضبه يقول لها أشياء موجعة اعترفت بها لي الآن فقط بعد مضيّ سنوات، لأنّ بإمكانها الآن أن تحكي

عنها. قال لها مرّة «أنت كذبة كبرى.. أتعتقدين أنّك صحافيّة كبيرة.. ثمّة مليون امرأة أهمّ منك وأجمل منك، فلانة مثلاً أشرف منك مليون مرّة. تتمنّى لو فقط سلّمت عليها ولا أفعل!».

مضت سنوات، وما استطاعت صديقتي أن تنسى أن يعايرها الرجل الذي أحبّته بامرأة أقلّ منها شأنًا ونبلاً.

«فلانة» هذه كانت صحافيّة جاهزة لتبيع نفسها مقابل أن تحضر مؤتمرًا في الخارج. كلّ ما يعنيها أن تتواجد في كلّ مكان عساها تحقّق شهرة ما. بينما كانت صديقتي تأبى أن تدقّ باب مدراء المؤسّسات الإعلاميّة، وترفض أن تُستباح كرامتها مقابل أيّ مكسب مهما غلا.

لذا ظلّت لفترة دون عمل كي لا تعطيه سببًا للغيرة. ما كان لها من شغل إلاّ تدليل الرجل الذي تركت كلّ شيء من أجله عساه يطمئنّ ويتزوّجها. لكنّه لم يطمئنّ برغم ذلك، ولا كان معنيًّا بالفرص التي أضاعها عليها. وفي ليلة من ليالي «الجدي» راح يضربها بما أوتي من ذكورة، بعد أن خُيّل له أنّه رآها تبتسم أثناء العشاء.. للنادل!

أسألها مدهوشة «كيف بقيت مع رجل كهذا؟».

تردّ «كانت له خصال جميلة، خصال نادرة تنسيني عيوبه. كان حنونًا ووفيًّا وشريفًا وكريم النفس. لكنّه كان عدوانيًّا في غيرته، كثير الشكوك، عنيفًا في لفظه، نوبات غضبه لا منطق لها ولا تُطاق، حتى عندما أتذكّرها الآن أبكي كما لو أنّي أعيشها من جديد».

ذلك أنّ الألم يستيقظ متأخّرًا، إنّه يعيش طويلاً بعد الذكريات الجميلة.

الألم هو ظلم الآخر لك، وتجنّيه عليك. هو قسمك الذي لا يصدّقه، وصدقك الذي يشكّك فيه، ودموعك التي يسترخصها.

ثم ذات يوم تقولين «كفى»!!

لا يمكن لظلم كهذا أن يكون حبًّا. ستصفقين الباب خلفك وتمضين. لتتركيه لملايين النساء اللائي كان يراهنّ «الأهمّ» و«الأشرف» و«الأجمل» و«الأصدق»... و«ال...». هو لهنّ الآن. ما عاد الأمر يعنيك.

حزمت صديقتي حقيبتها إلى نيويورك لتعمل في الأمم المتّحدة. لم تأخذ معها دموعًا ولا ندمًا. أخذت ذكرى ليلة الجدي!

* * *

«العين تكذّب نفسها إن أحبّت.. والأذن تصدّق الغير إن كرهت»

كلام أقلّ...

ينبغي للإنسان الذي يُريد أن يعيش أن يقول نصف الحقيقة ويخفي نصف الشعور.

جان كوكتو

المشكل عبارة عن مجموع كلمات إذا دخلت حوزتها تصبح ألفًا.

إنّها فتيل يمكن إطفاؤه بالتسامح، أو بكلمة اعتذار من الطرف المخطئ. فتنازل أحد الطرفين عن كبريائه أو عن حقّه لا يعدّ خسارة، بل هي التضحية الجميلة التي سيكبر بها في عين الحبيب وينقذ بها الحبّ من فكّي التحدّي.

لكن هذا «المشكل الفتيل» قد يتحوّل بالعناد إلى نار لا يمكن السيطرة عليها، حين تتغذّى من حطب الكلمات القاسية التي احتفظ بها كلّ واحد في قلبه ليوم كهذا.

الخلافات العاطفيّة تكبر لأنّنا عند كلّ خلاف لا نواجه المشكل الجديد الطارئ، بل نعود في مواجهتنا مع الطرف الآخر إلى

استعراض قائمة المشاكل، التي يستعرضها الرجل غالبًا في كلّ مناسبة، واحدةً واحدةً، ضمن لائحة المآخذ والتهم التي جمعها على مدى العلاقة من يوم لقائكما.. وإلى يوم القيامة، مرفوقة بكلّ ما أسدى إليك من خدمات عاطفيّة يوم غفر لك أخطاء اقترفت معظمها حبًّا فيه.

يفعل ذلك على طريقة فيديل كاسترو الذي كانت بعض خطبه تدوم سبع ساعات، بسبب إصراره كلّ مرّة على تذكير الشعب الكوبي بكلّ ما حقّق له من إنجازات، ومنّ عليه من رفاهية خلال نصف قرن من الحكم. وكان الوقت يمتدّ إلى حدّ يكفي معه لمستمعيه المساكين أن يمرض منهم من كان معافًى، ويموت من كان مريضًا. وتحبل نساء، وتنجب من يفاجئها المخاض أثناء الخطاب الهادر. وحدث للرفيق الإله المفدّى، أن كان هو من سقط فاقدًا الوعي لفرط كلامه.

فلا تدعن الكلمات تغتال العشّاق، وقد كانت كلمة واحدة كافية لإنقاذ العشق!

نصيحة:

من الرجال من لا يعلم أنّ الكلمات كالرصاصة لا تُستردّ. وقد يفرغ فيك في لحظة غضب ذخيرته من الكلام الذي يفاجئك بأذاه. فما توقّعت ذلك الحبيب قادرًا على حمل ذلك الكمّ من الشرّ والأذى في نفسه.

إنّ الغضب يفضح طينة الرجال. وقد قال أحد الحكماء ناصحًا

«من غضب منك ثلاث مرّات ولم يقل فيك شرًّا اختره صاحبًا».

وقال الأحنف بن عيسى «يا بنيّ إذا أردت أن تصاحب رجلاً فأغضبه، فإن أنصفك من نفسه فلا تدع صحبته، وإلاّ فاحذره».

احذري رجلاً سريع الغضب، يصعب عليه السيطرة على انفعالاته. أيًّا كانت خصاله، وربّما كانت خصاله لا تعدّ، وكان له قلب طيّب، وكان حبيبًا نادرًا، لكنّ نوبة غضب واحدة يلقي فيها عليك بحممه وبالجمر المتطاير من فمه، ستحوّل قلبك إلى مدينة مدمّرة (كشرنوبيل) تصعب عودة الحياة النقيّة إلى رئتيها.

* * *

رجل لم يدرِ كيف يردُّ

على قُبلة

تركها أحمر شفاهي

على مرآته

فكتب بشفرة الحلاقة

على قلبي:

«أحبّك»

خراب ما كان جميلاً

«وكما خرّبت حياتك هنا في هذه الزاوية الصغيرة ـ فهي خراب أنّى ذهبت»

كافافي

دعاني إلى فنجان شايٍ بمناسبة مروره ببيروت. على غير عادتي قبلت الدعوة. قلت عساه يحتاجني رسولة لصديقتي التي انقطع عنها منذ أشهر.

قال وقد أشعل سيجارته الثالثة:

ـ لقد شُفيت منها وسأحبّ. ثم كرّر بصوت أعلى، سأحبّ!

لم أقل له إنّ حبًّا تسبقه نواياه ليس حبًّا، وإنّ رجلاً في نيّته أن يحبّ لا يحتاج إلى إعلان ذلك بصوت عالٍ، ولا أن يوصل الخبر لمن شُفي منها.

كانت ملامحه أكثر قسوة وتعبًا من أن تتوافق مع ما يتلفّظ به. كانت من يدّعي الشفاء منها قد تفشّت فيه كما تفشّى فيها، وكان

حبّهما كمرض خبيث في مراحله الأخيرة قد شوّه كلّ شيء.

رجل دمّره الشكّ يجلس أمامي، ليس لظنونه من منطق، لكنّه يصرّ عليها، فهو يحتاج أن يكون الضحيّة ليشفى. إقناعه بالعكس يخلّ توازنه، ويطيح بالملفّ الذي بنى عليه دفاعه ويجترّه دون كلل.

طلبني ليُشهدني على خراب حبّ كبير. رجل عهدته راقيًا وشهمًا يطلق الآن رصاصه الطائش كيفما اتّفق على من أحبّ. يعرض إطلاعي على رسائلها الهاتفيّة إليه.

أقول:

ـ هذه امرأة تمنّت أن تسبقك إلى الموت حتى لا تغادر قبلها، فكيف تغادرها حيًّا وتتخلّى عنها؟

يردّ:

ـ أنت مخدوعة بها مثلي.

لا أمل. هو الذي كان يغار عليها من ثيابها، قال إنّ أسعد أيّامه يوم يسمع أنّها سعيدةٌ مع رجل آخر!

نكتة ما استطعت أن أضحك لها؛ كانت خارجة من عمق الألم والقهر.

كم يكون قد تعذّب ليقول كلامًا كهذا! وكم تعذّبت صديقتي التي أعطت وما استبقت لنفسها شيئًا، لأنّها ما توقّعت أن يجيء يوم كهذا!

كم انتظرته وقالت، كلّما أغريتها بإنهاء عذابها، وفتح قلبها لغيره، «لا بعده إلاّ التراب!»

هو لا يصدّق شيئًا ممّا أقوله عنها.

دافعت عن أسطورة حبّهما ما استطعت، لكنّ الألم أعماه عن سماع صوت غير صوت وسواسه وغيرته.

أسأله:

ـ أريد أن أعرف منك ما الذي صدر منها ذلك اليوم بالضبط لتأخذ قرار الافتراق عنها.

يجيب بعصبيّة:

ـ اسأليها.. هي تعرف السبب.

ساد بيننا صمت الشبهات.

كان يدّعي الاشتباه فيها، وأميل إلى الاشتباه فيه. إنّ رجلاً لا يقدّم دليلاً على ما يقول، هو يفتري، وفي أحسن الحالات يتمادى في خيالاته وسوء ظنّه، حدّ تحويل كوابيسه إلى واقع يراه بأمّ عينه.

ـ لكنّها لا تعرف.. ما يشقيها هو هذا بالذات.

يحتمي من جديد بغموضه مردّدًا:

ـ بل هي تعرف.

لا أكثر قهرًا من أن يعاديكِ حبيب، من دون أن يقدّم لكِ شرحًا، ولا أكثر وجعًا من عزيز يتخلّى عنكِ دون سبب، ويختفي من حياتكِ

دون أن تعرفي لماذا انقطع عنكِ. وكلّما سألته قال أنت تعرفين. ليس قمّة القهر والظلم فحسب، بل قمّة الجبن أيضًا. أكان قرار الفراق يحتاج إلى اختلاق كذبة تنكّريّة تمنحه فرصة التنكّر لها!

فكّرت أنّه برغم ذلك لم يلامس عمق الألم بعد، سيبلغه بعد سنوات، عندما يكون الحبّ بينهما قد مات ويكون قد أحبّ أخرى، وأحبّت هي سواه، ويلتقيان مصادفة في مساء الحياة، وقد انطفأت بينهما الحرائق.

يومها فقط، وهي تروي له تفاصيل حدادها عليه، ووفائها له، سيصدّقها، ويخترقه الخنجر الصدئ للندم.. كيف تركها من يأسها فيه تمضي لسواه؟!

حين افترقنا كان خرابه قد انتقل إلى قلبي. خفت على الحبّ ممّا رأيت. خفت على كلّ حبّ حاضرًا ومستقبلاً. وحزنت مسبقًا من أجل كلّ عشّاق العالم.

إن كان صرحًا كذاك ينتهي هكذا فعلى الدنيا السلام. أيّة جدوى ممّا نكتبه عن الحبّ إذن؟

كانا يعتقدان أنّ حبّهما أقوى حتى من الموت. لكن حبًّا أقوى من الموت لا يقوى على أصغر حشرة، تلك السوسة اللامرئيّة للشكّ التي تنخر بوسواسها شجرة الحبّ من الداخل، ستجعلها تهوي ذات يوم بطولها الفارع أرضًا، على الرّغم من أوراقها الخضراء.

افترقنا، رأيته يبتعد بخطًى واسعة كرجل مسرع نحو قدر ما.

* * *

الرجل المنتعل نسيانه

نسي أن يربط حبل حذائه

حتمًا

سيتعثّر بالذكريات

تجمّلي بذاكرة البدايات

«بنيت قصورًا فاتنة إلى حدّ أنّ خرائبها الآن تكفيني»

كان عليّ أن أنقل رسالة النهاية إلى صديقتي.

كيف أقول لها إنّ الرجل الذي أوقفت حياتها عليه أصبحت خارج حياته. لماذا لم يبلغها بقراره قبل أشهر؟ حتمًا كان قصده هدر المزيد من وقتها، فبينما كان هو يتداوى منها.. كانت هي في انتظاره تمرض به!

خفت عليها أن تنهار لسماع الخبر، فقد كانت تثق في عودته، ذلك الحريق الجميل الذي اشتعل بينهما وأضاء العالم، مهما حدث ستبقى منه شرارات متناثرة في القلب جاهزة لإضرام نار الحنين فيهما. لكنّه أراد إشعارها أنّ كلّ شيء بينهما، بما في ذلك الذكرى الجميلة، قد انطفأ.

حضرتني قصّة أخي ياسين يوم حطّم في حادث مريع سيّارة أختي

الجديدة، حين قادها أثناء زيارته للجزائر وخرج من الحادث حيًّا بأعجوبة.

قال لها يومها وهو يعود إلى البيت تحسّبًا لردّ فعلها:

ـ عندي لك خبران. الأوّل خبر سعيد والثاني خبر سيّئ.. بماذا أبدأ؟

أجابت صوفيا مندهشة:

ـ بالخبر السعيد.

قال:

ـ كسبت أخًا.. لقد بُعثت اليوم حيًّا!

سألته عجلى:

ـ والخبر السيّئ؟

قال:

ـ لقد خسرت سيّارتك.. لقد تحطّمت تمامًا!

حين رأت صوفيا حال السيّارة التي خرج منها ياسين حيًّا، نسيت خسارتها المادِّيّة على فداحتها، وظلّت لأيّام كلّما رأت ياسين حمدت الله على بقائه حيًّا.

دخلت على صديقتي، فوجدتها تنتظر بلهفة تقريري عن ذلك اللقاء. قلت لها وأنا أقاسمها القهوة:

ـ عندي لك خبران. خبر جميل وآخر سيّئ. بماذا أبدأ؟

قالت مذعورة:

ـ بالخبر الجميل.

قلت:

ـ أبشري لقد كسبت نفسك.

سألت عجلى:

ـ والخبر السيّئ؟

ـ لقد خسرت ذلك الرجل.

أعادت فنجان القهوة إلى الطاولة ولمعت دمعة في عينيها.

قلت:

ـ لا تحزني، ما عاد من شيء يمكن إنقاذه. هو نفسه ما عاد يشبه نفسه.

ـ لكنْ مثله لا يتغيّر.

ـ سوء الظنّ عندما يتمكّن من أحد يغيّره.

ـ هل قال لك ماذا بدر منّي ليختفي هكذا فجأة دون شرح؟

ـ ردّد «هي تعرف السبب».

ـ لكنّني لا أعرف!

ـ إن كنت لا تعرفين السبب فالله يعرفه، وربّما أراد لك من هذه القطيعة خيرًا ستدركينه لاحقًا، ما دمت مظلومة.

قالت وقد دمعت عيناها:

ـ لا أكثر ألمًا من أن يتّهمك من تحبّين في أصدق ما قدّمت له. أن تهديه الإخلاص فيتّهمك في إخلاصك، وتحفظين أمانته فيشكّك في أمانتك؟

قلت:

ـ ربّما في أعماقه هو يدري أنّك أخلصت له، لكنّ صوت تلك «السوسة» كان أعلى من صوت قلبه. لقد قال فيك كلامًا موجعًا أراد حتمًا أن أنقله لك، لو سمعته لمتّ قهرًا..

ـ أريد أن أسمعه.

ـ لا داعي لمزيد من الألم.

ـ لا ترأفي بي. أريد أن أعرف كيف يتحدّث عنّي الرجل الذي أحببت حدّ الموت، ويريد اليوم موتي.

ـ ليس هو الذي كان يتكلّم. هذه لغة تلك الحشرة التي تنخر قلبه. هو رجل نبيل وشهم. لو لم يكن كذلك لما كنت أحببته أصلاً.

ـ لكنّني أفوقه نبلاً. ما ذكرته يومًا إلاّ بالخير. لماذا يشوّه الرجال امرأة عندما يغادرون؟ لماذا يلوكون شرفها في المجالس؟ أليس لهم أخوات؟ أليس لهم بنات؟

قلت وأنا أرى دموعها:

ـ لا تبكي؛ إنّ من يشوّه امرأة أحبّته لا يشوّه إلاّ نفسه ويبشّع ما كان جميلاً في ماضيه، وذاكرته لن تغفر له ذلك. هل تعرفين قصاصًا أكبر من هذا؛ أن يلتفت المرء إلى الخلف فلا يرى إلاّ

الخراب؟ لا تزايدي عليه بشاعة ودمارًا. . أبقيه جميلاً في ذاكرتك. لا تتذكّري منه إلاّ ما كان جميلاً واستثنائيًّا بينكما. لحظة الحبّ الخرافيّة يوم رأيته لأوّل مرّة. أوّل رسالة هاتفيّة وصلتك منه. . أوّل مرّة دقّ هاتفك وكان هو على الخطّ. . أوّل مرّة قبّلك فخانتك رجلاك. . أوّل مرّة انتظرك عند بوّابة مطار. . أوّل مرّة جلس أمامك في مطعم. . توقّفي عند روعة البدايات ودعي له بشاعة النهايات، ما دام هو الذي اختارها. صدّقيني عندما تترفّعين عن أذاه وتغفرين ظلمه لك ستصبحين أجمل، وسيمكنك حينها أن تحبّي من جديد بسعادة أكبر.

ـ لكنّني ما كنت أريد أن أحبّ يومًا سواه.

ـ برغم ذلك، لن تستطيعي بعد الآن أن تحبّي رجلاً أرسل لك معي كيسًا من التهم والإهانات.

لا مفرّ. ربّما، كانت تحتاج أن تسمع أذاه لتُشفى منه.

فتحت الكيس. قلت لها كلّ شيء دفعة واحدة. وصفت لها شظايا الرصاص الذي تلقّيته نيابة عنها. ظلّت تسألني عن كلّ التفاصيل، عن كلّ كلمة قالها، عن عدد السجائر التي دخّنها، عن الثياب التي كان يرتديها، عن لون شعره بعدها، عن الساعة التي وصل والساعة التي غادر فيها.

ثم. . كما لو أنّها تناولت جرعات الدواء دفعة واحدة، أصبحت خلال لحظة امرأة أخرى.

ثمّة من يولد من طعنة، وثمّة من يموت في قلبنا إثرها.

ما رأيتها بعد ذلك تبكيه أو تأتي على ذكره، لكنّها كانت تبدو لي أجمل في كلّ مرّة ألتقيها.

* * *

لا يولد البشر مرّة واحدة يوم تلدهم أمّهاتهم وحسب، فالحياة ترغمهم على أن ينجبوا أنفسهم.

غبريال غارسيا ماركيز

من قصص النساء الغبيّات

يعتقد الرجل أنّه بلغ غايته إذا استسلمت المرأة له. بينما تعتقد المرأة أنّها لا تبلغ غايتها إلاّ إذا شعرت أنّ الرجل قد قدّر ما قدّمته له.

بلزاك

أشياء ستصل في الوقت الخطأ

وأخرى كأنّها لم تأتِ

وثالثة تجيء على عجل

لتمضي

من قبل أن تعي أنّ للأشياء أجلا

* * *

أشياء تبكي أصحابها

وأخرى تَسْخَر

من عشّاق يبكون شيئًا

ما وُجد يومًا سوى في مخيّلتهم

* * *

أشياء تعدُك بأشياء جميلة

وأخرى تتوعّدك

أشياء تكذب

أشياء تنتحب

أشياء تنصب عليك

وأخرى لم تصدّقها

إلاّ بعدما انتهى كلّ شيء

من نصّ «أشياء وأخرى»

حزيران ٢٠٠٨

القصّة الأولى

لا تتنهّدن بعد الآن أيّتها النساء. لا تتنهّدن أبدًا. فالرجال خادعون أبدًا

شكسبير

كانت تقيس حبّه لها بالسجائر التي لا يدخّنها. تقول «كلّ سيجارة لا تشعلها هي يوم تهديني إيّاه، يضاف إلى عمر حبّنا».

كم منّت نفسها بإنقاذه من النيكوتين. لكنّه يوم أقلع عن التدخين، أطفأ آخر سيجارة في منفضة قلبها. تركها رماد امرأة، وأهدى أيّامه القادمة لامرأة تدخّن الرجال.

القصّة الثانية

«الحبّ الحقيقي هو اقتسام بعض نفسك مع شخص آخر أقرب إليك من نفسك»

كلّما رأت رجلاً أنيقًا، نسيت أن تنظر إليه، وراحت تتصوّر كم ستكون بذلته جميلةً على حبيبها.

كلّما صادفتها ثيابٌ رجّاليّة في واجهة، بدا لها أنّها فُصّلت من أجله، وأنْ لا رجل غيره من حقّه ارتداؤها.

كانت عيناها تشتريان له كلّ شيء جميل تُصادفه. وقلبها يقتني له ما يبخل به جيبها عليها، علّه كلّما خلع شيئًا منها عاد فارتداها. وعندما فاضت خزانة قلبه بحبّها، خلعها وارتدى امرأة سواها، فقد أصبح أكثر أناقة من أن يرتدي «أسمال حبّ».

القصّة الثالثة

إنّ المرأة إذا تعلّقت بالرجل كانت أسبق منه إلى التصديق، وكان خداعه إيّاها أسهل من خداعها إيّاه..

عبّاس محمود العقّاد

كلّما نزل هاتف جديد إلى الأسواق، أهدته إيّاه، كي تطيل عمر صوته، وكي يكون لها من أنفاسه نصيب. أمنيتها كانت أن تصير الممرّ الحتميّ لكلماته، أن تقتسم مع الهاتف لمسته، أن تضمن لها مكانًا في جيب سترته، أن تكون في متناول قلبه ويده.

بعد الهاتف الثالث، طلّقها بالثلاث. ترك قلبها للعراء خارج «مجال التغطية».

ودون أن يقول شيئًا، دون أن يقدّم شروحًا، أعلن نفسه «خارج الخدمة».

في الواقع، كان قد بدأ يعمل خادمًا بدوام كامل لدى امرأة يقال إنّها تدعى «الخيانة».

القصّة الرابعة

«الجمال يوجد في عين الذي ينظر إليه»

أعوام وهي تقول له «كم أنت وسيم!». كانت تراه بعيون القلب، وعيون الماضي، وعيون الغد، وعيون النعمة، وعيون الامتنان للحياة، وعيون الأغاني، وعيون الأشعار، وعيون النساء، وعيون الوفاء.. وعيون الغباء.

كلّ عيونها كانت مشغولة بتلميع تمثاله. يوم أحبّته غدت كلّها عيونًا.

ما تركت لنفسها من آذان لتسأل: لماذا لم يقل لها يومًا «كم أنت جميلة»! بينما كلّ العيون من حولها كانت تقول لها ذلك.

كان حبّها فضفاضًا إلى حدّ غطّى كلّ عيب فيه، وكان حبّه ضيّقًا إلى حدّ لم تبق شعرة في وجهها لم يطلْها الملقط إلاّ ورآها.

* * *

«أنت لا ترى فيمن تحبّ إلاّ ما تحبّ... أن تراه»

القصّة الخامسة

النساء دائمًا ما تقلق على الأشياء التي ينساها الرجال

والرجال دائمًا ما يقلقون على الأشياء التي تتذكّرها النساء

ما كانت قبله امرأة ولا كان قبلها حيًّا.

يوم التقت به كان موليًا ظهره للحياة. لم يغازل قبلها غير الموت، يستعجل الرحيل، يقتل الوقت بإطلاق النار على أيّامه، كما في لعبة إلكترونيّة.

أحبّت شاعريّة كآبته، نخوته، براءة مشاعره، إخلاصه، ذاكرته، طفولته المتأخّرة. راحت تنفخ فيه من حياتها ليحيا، كما لو كانت أمّه. تقاسمت معه أنفاسها، حمته بخوفها، وقته بدعواتها، حبّبت له الجمال والفصول والمطر والبحر والسفر والشعر والبوح والرقص، حبّبت له أن يحبّ، أن يكون رجلاً، أهدته كنوز الأمل حتى ينسى طريقه إلى ضرّتها... المقبرة.

ذات يوم جاءها في كلّ أناقته، سعيدًا كما لم يكن يومًا. ارتدى

البذلة التي اشتراها معها. دعاها إلى نزهة بمناسبة تخرّجه من مدرسة البهجة.

في السيّارة وضع أغاني كانا يرقصان عليها معًا. لحقت به فرحى. لكنّه أوقف السيّارة فجأة وطلب منها أن تنزل.

تركها عند باب المقبرة ترتجف غير مصدّقة، ومضى يعقد قرانه على... الحياة.

هناك نوعان من الرجال الميّت.. والمميت

هيلين رولاند

القصّة السادسة

معظم الأمراء كالأطفال مفرطون في الدلال لكنّهم سريعو النسيان

جان لورون دالمبير

لم تطلب من الله سوى أن يبعث لها رجلاً يحبّها ويحميها، يهديها اسمه وتهديه ذرّيّة صالحة. وعندما دخل حياتها أمير لم تصدّق سخاء القدر. حطّت طائرته في قلبها ونزل منها تسبقه سلال الورود والهدايا ووشوشات هاتفيّة تقول «ستكونين لي».

أيّام من الدوار العشقي... ثمّ فتحت عينيها يومًا على أزيز طائرته. طار الحلم نحو امرأة أخرى ومعه حلمها بثوب أبيض.

ما زالت منذ أعوام في المطار تراقب حركة الهبوط والإقلاع. هي لا تتوقّع عودته، لكن ما عاد بإمكانها أن ترضى بغير حبّ يأتي من السماء في طائرة خاصّة.

ما استطاعت أن تنسى أنّها كانت لأيّام أميرة.. لكنّها نسيت لأعوام أن تعيش كامرأة.

* * *

القصّة السابعة

لا يوجد حبّ كامل. . ولا جريمة كاملة

أحبّها، دلّلها، عشقها، خاف عليها، حماها، بكاها، أبكاها، ما غار عليها من الآخرين، غار عليها من الفشل. أرادها الأولى في كلّ مادّة. قسا عليها كي لا تقبل بأقلّ من القمّة. صقلها كي تلمع كالماسة حيثما وُجدت. وضعها أعلى السلّم ثم سحب من تحتها السلم حتى لا تنزل درجة عن أحلامه.

عبر حياتها كنهر، ومضى إلى مصبّه صوب البحر، دون أن يلتفت إلى الخير الذي تركه على ضفافها.

أرادها كبيرة كما لو أنّه أنجبها. . ولم تدرك أنّه تمنّاها كذلك لتنجبه.

تلك الأبوّة العاشقة حين تنسحب تترك خلفها مذاق يُتم أبديّ.

لتشفى منه راحت تقلّده. . أصبحت أمّ من أحبّت بعده. أحبّته، دلّلته، عشقته، خافت عليه، حمته، بكته، أبكته، ما

غارت عليه من الأخريات، غارت عليه من الفشل. أرادته كبيرًا كما لو أنّها أنجبته.

وخذلها ذلك الرجل.

لم يدرك أنّ امرأة تغدق على رجل بكلّ تلك الأمومة هي تريده أبًا!

الحبّ يُعيد نفسه.

القصّة الثامنة

المرأة ناقة تساعد الرجل على اجتياز الصحراء

أحبّته حدّ اعتناق دينه، ومطابقة ذاكرته، فاستبدلت بشقارها سواد شعر بدوي، وبنظّاراتها الشمسيّة كحلاً عربيًّا، وبمنتجعاتها الصيفيّة مضارب قومه. وحين ما عاد لها من أهل عداه، ولا لعائلتها من شجرة، انغرست شتلة في غابة قبيلته. أصبح لها قرابة بكلّ نخلة نبتت في ديرته، وكلّ ناقة تسير في صحرائه، وكلّ مئذنة يُرفع منها الأذان في بلاده.

راحت تبخّر أثوابها قبل أن تلقاه، وتشعل العود في مدخل كلّ خيمة يحلّ بها، وتقدّم الذبائح ابتهاجًا بمجيئه. وعندما فاقته بداوة، بعث لها من إقامته في لندن رسالة تقول «إنّي أتداوى من الحبّ الرجعي. أنا مريض فعلاً. وفي دائي دوائي».

كامرأة بدويّة قرّرت ألاّ تبكيه. تركته للأسرّة الشقراء، وأعلنت قرانها على الصحراء.

القصّة التّاسعة

العاشقان الصادقان مثل الشفتين في الفم، قد يفترقان بكلمة، ولكنّهما سرعان ما يعودان إلى الانضمام من جديد.

محمّد السيّد محمّد

أحد شيوخ قبائل الحبّ قال لي في حضرة حبيبة تصالح معها للتوّ «ما عدت أطيق أن أتخاصم معها أكثر من أيّام. قولي لي كم من الوقت تحتاجين لتغفري لشخص خطأه، أقلْ لك حجم حبّك له».

منذ سنوات وصديقتي الحميمة تنعم بغفران هذا البدويّ النادر. دعتني أخيرًا للتعرّف عليه بمناسبة زيارته لبيروت.

أقاما على شرفي ـ أو على شرف النسيان ـ مأدبة عشاء يشهدانني فيها على حبّهما؛ فطالما كنت شاهدة على خلافاتهما وفراقهما.

في الواقع هذا الرجل الأربعيني اللامع حضر ليرافع عن القضيّة الوحيدة التي تعنيه: الوفاء الآسر لرجال من سلالة نادرة. بعد أن غافلتني صديقتي وسرّبت له مسوّدة هذا الكتاب. قال إنّني ظلمته حين رويت قصّتهما من وجهة نظرها، لكنّه يقبل أن يكون عبرة

للعشّاق، شرط أن أوضّح أنّ صديقتي كانت أوّل حبّ في حياته، وأنّه خلال عشر سنوات من المدّ والجزر العاطفي ما أحبّ سواها، ولا خانها مع امرأة، برغم أسفاره الكثيرة، وإمكانيّاته الكبيرة. اعترف بشجاعة أنّه حدث أن حاول معاشرة امرأة غيرها عندما كانت تطول بينهما القطيعة ويؤذيه صدّها. لكنّه كان في آخر لحظة يلغي أيّ مشروع لنزوة عابرة، مواصلاً رفع التحدّي العشقي بوفائه لها.

قال.. «حدث أن عدت إليها معتذرًا عندما كان خطئي كبيرًا في حقّها. أحبّ أن أتمرّد على ذكورتي. في الاعتذار عودة إلى الطفولة وتطهير للنفس من كبائرها، كالغرور والكبرياء والتسلّط والأنانيّة والتجنّي. تشعر المرأة أنّ كلّ ما تفعله لحفظ كرامتها أمام حبيبها عزّة لها. لكن، على كبريائي، أرى أنّ عزّتي في هدر كرامتي على قدمي من أحبّ».

كنت في حضرة عاشق من سادة الوفاء، قطع مراحل كبيرة في تربية النفس على الإخلاص، لبلوغ مقام كهذا.

عاشق يشتهيه العشق ويباهي به بين الرجال.

سألته معتذرة «إن شئتَ حذفتُ تلك المقاطع التي أسأت تقديمك فيها». ردّ ضاحكًا «لا تفعلي ذلك الرجل هو أيضًا أنا!».

فهمت لماذا صديقتي التي، لظروفها الخاصّة، تقاطعت حياتها مع رجل غيره.. ما استطاعت يومًا برغم ذلك أن تنساه.

القلب ينسى من يخونه. لكن يتعذّر عليه نسيان الوفاء.

* * *

القصّة العاشرة

«ليس السخاء بأن تعطيني ما أنا في حاجة إليه أكثر منك، بل السخاء في أن تعطيني ما تحتاج إليه أكثر منّي»

أمّا تلك فخلتها أكثر النساء حماقة. غير أنّي كلّما استعدت ذكراها ما وجدت لها تصنيفًا بين العاشقات؛ لكأنّها العشق نفسه. التقيت بها قبل عامين في جامعة بوسطن. عندما أنهيت محاضرتي، سألتني سؤالاً يشي بخيبتها في الرجال. قالت «لماذا الرجال في رواياتك يبقون أوفياء حتى آخر صفحة؟ هل أنت تصفينهم كما عرفتهم؟ أم كما تمنّيتهم؟ فرجالك لا وجود لهم سوى في الكتب».

أجبتها خارج المحاضرة، وأصبحنا صديقتين ليومين. أخفت عنّي جرحها إلى يوم طلبت منها مرافقتي إلى محلّ رجالي كي أشتري هديّة لزوجي.

أبدت حماسًا لمرافقتي، وسعدت وهي تصحبني إلى محلّ قالت إنّها تعرفه.

داخل المحلّ انطفأت بهجتها. رأيتها في حالة صمت مهول تدور بين الأجنحة، تدقّق في أسعار بعض البذلات. لكن عندما حضر البائع ليعرض عليها مساعدته شكرته وواصلت جولتها وحيدة. هي ما جاءت لتشتري بل لتستعيد لحظات شرائها لسعادة خلعها الزمن، وغدت مجرّد ثياب معلّقة تتدلّى منها إتيكيت عليها ثمن، بإمكان من شاء أن يدفعه.

خذلتها دموعها؛ كأنّها جاءت بي هناك لتحكي لي ما لم تقله أوّل يوم.

لسنوات أحبّته. لعلّه في غربته كان يبحث عن حبّ عربي، فعثر على حبّ غبي.

كانت مستشارة قانونيّة، سندته في دراسته، أرادته أكبر محامٍ عربي في بوسطن. كانت يوم مرافعته تستيقظ قبله، تردّد على مسامعه أنّ المحاماة ثقافة أيضًا، وأنّ كلّ مرافعة له لا بدّ أن تكون حدثًا. ولأنّها كانت تجهل الحدث الأعظم الذي ينتظرها، راحت تغيّر حياته واهتماماته، وطلّته وهيئته وأمّيّته في مطالعة كتاب الأنوثة. كيف لها أن تعلم أنّ ما تعلّمه على يدها سيغريه بتصفّح غيرها. هي التي رضيت ألاّ يكون لها تمامًا وأن تتقاسمه في السرّ مع زوجة أميركيّة.

بل فاض حبّها حتى على تلك المرأة، امتنانًا للسنوات التي نابت عنها في رعايته حين وصل شابًّا يافعًا من بلاده. أصبحت تعرف حتى ذوقها وعطرها المفضّل، وتقتني لها في الأعياد هدايا تظنّها الزوجة من زوجها.

وحين تزور سوريا في عطلة، كانت تعود ومعها شراشف فاخرة لمائدة السفرة، وهدايا أخرى للبيت. يقدّمها الزوج لزوجة لا تدري أنّ قلب امرأة تحبّ زوجها، كان يجمّل بيتها في السرّ ويسعد باستقبال الضيوف معها.

استيقظت متأخّرة. كانت دون علمها قد أعدّته لامرأة ثالثة. كانت أعذاره جاهزة ونواياه مبيّتة كتهمة!

الرجل الذي أرادت أن تُعيده إلى جذوره اقتلع من قلبها جذور أيّ حبّ عربي مستقبلي. قالت «العجيب أنّني نجحت في وضعه خارج حياتي وقلبي وسريري، لكنّني ما زلت عندما أمرّ بمحلّ كنت أشتري له منه ثيابًا.. أجدني أدخله وأتفقّد المجموعة الجديدة للموسم، أبحث عن اللون الذي يناسبه.. وعن مقاسه. أتمنّى لو اشتريت له أجمل البذلات، واخترت ما يناسبها من قمصان وربطات عنق. وما صادفت شيئًا يليق بابنته إلاّ وغالبني الدمع. فكم آثرتها على نفسي. وتمنّيت لو أعددت جهازها وأقمت زفافها وأهديتها مصاغي. لقد كنت الأمّ العربيّة التي لم تدر بوجودها. حتى زوجته، ما مرّت نهاية سنة إلاّ وحزنت وأنا أرى «كوفريه» معروضًا بمناسبة الأعياد فيه عطرها المفضّل ولا أستطيع أن أهديها إيّاه».

قلت مندهشة:

ـ حتمًا لست صادقة فيما تقولين!

قالت:

ـ بل والله صادقة. حزني ليس ندمًا على ما أعطيته.. بل على ما

لم يعد بوسعي أن أعطيه. هل ثمّة شقاء أكبر من أن لا يعود بإمكانك أن تعطي لمن أحببت.. إنّه قمع موجع لسخاء فُطِرْتِ عليه. أمام هذه البذلات المعلّقة التي هي في متناول جيبي وما عادت في متناول قلبي بكيت؛ فقد تأكّد لي حينها موته.

الميّت هو الذي ما عاد بإمكانك أن تعطيه شيئًا، لكن ما زال بإمكانه في الغياب أن يعطيك ما شاء من الألم.

رفعت جاكيتًا جلديًّا كان معلّقًا على المشجب وأردفت:

ـ قبل ثلاث سنوات أهديته هذا الجاكيت نفسه المبطّن من الداخل، درءًا لصقيع بوسطن. ما يسعدني حقًّا اليوم أنّه، حتى بعد موت الحبّ، سيظلّ هذا الجاكيت الجلديّ يقيه من البرد بعدي عندما يغادر البيت ليلتقي بامرأة غيري...

ما عرفت قبل هذه المرأة أنّ الحبّ إغداق لا إنفاق، لأنّ مقياسه القلب لا الجيب. لذا الفراق يفقر العاشق الكريم، حتى ينتهي به الأمر إلى أن يعيش على ذكرى عطائه، مواسيًا نفسه بها، كما لو كانت غنيمة حبّ. لذا هو لا ينسى إلاّ متأخّرًا. لأنّه يشقى بما لم يعط، أكثر من شقائه بما أُعطي من ألم.

تانغو النسيان

كان ذلك غدًا لأنّي ما زلت أحبّك

كان ذلك البارحة لأنّك نسيتني

غادة السمان

أيّها النسيان أعطني يدك

كي أسير في مدن الذكرى معك

نضج الفراق

على شفاهي أزهرت قبل الوداع

لك قطافي.. يا نسيان هبني قبلتك

* * *

نسياني.. يا نسياني

امرأة تشبهني يومًا بكت

من رجل كم يشبهك

ها هي ذي اليوم سلت

هو هناك.. وهي هنا تراقصك

* * *

يا قدري.. يا أملي.. يا رجلي من دون الرجال

يا نسياني

راقصني.. خاصرني.. طيّرني.. غازلني

قل «ما أجملك!»

بك أحتفي.. لك أفي

ما دمت لي.. ما دمت لك

لن أرتدي حداد الحبّ

من نصّ «أيّها النسيان هبني قبلتك»
حزيران ٢٠٠٧

الحذاء الموجع.. لحبّ جديد

نحن نرتدي قلوبنا على أقدامنا.. إنّ الأحذية هي أفضل المؤشّرات على ما يمرّ به الناس من حالات شعوريّة. الأحذية مزيّنة بالثقوب وأحياناً بالندوب.

جون سوان (متخصّصة في تاريخ الأحذية)

الحبّ يؤسّس نفسه على ذاكرة جديدة، يحتاج إلى نادل ينظّف طاولة الحبّ، ينفض عنها الغطاء قبل أن يجلسك عليها.

نهرب من الذكريات المفترسة إلى حبّ جديد سيفترسنا لاحقًا، لكنّنا نريده برغم ذلك، هربًا من حبّ سابق. نحن تمامًا كمن يهرب من حريق يشبّ في بيته، بإلقاء نفسه من أعلى طابق. لا يهمّه أن يتهشّم. المهمّ ألاّ يموت محترقًا، أن ينجو بجلده من ألسنة النار، ولا يتنبّه لحظتها إلى ما ينتظره أرضًا وهو يُلقي بنفسه إلى المجهول.

عندما تلجأ إلى حبّ جديد لتنسى حبًّا كبيرًا، توقّع ألاّ تجد حبًّا على مقاسك.

سيكون موجعًا مزعجًا كحذاء جديد. تريده لأنّه أنيق وربّما ثمين. لأنّه يتماشى مع بذلتك، لكنّه لا يتماشى مع قلبك، ولن تعرف كيف تمشي به. ستقنع نفسك، لمدّة قصيرة أو طويلة، أنّك إن جاهدت قليلاً بإمكانك انتعاله. لكنّ «صانع الحذاء يريدنا أن نتألّم كي نتذكّره». ستدّعي أنّ الجرح الذي يتركه على قدمك هو جرح سطحي يمكن معالجته بضمادة لاصقة. كلّ هذا صحيح، لكنّك غالبًا ما لا تستطيع أن تمشي بهذا الحذاء مسافات طويلة. قدمك لا تريده. لقد أخذت على حذاء قديم مهترئ.. مشت به سنوات. لهذا قال القدماء «قديمك نديمك» وأنت في كلّ خطوة تتقدّمها لا تملك إلاّ أن تعود بقلبك إلى الوراء.

قد تقول لك صديقات وأنت تسيرين مع رجل وسيم أو ثري أو مهمّ «كم أنت محظوظة بهذا الرجل!». وحده قلبك الذي تنتعلينه ويمشي بصعوبة إلى جوارك.. يطالبك بالعودة إلى البيت، وإخراج ذلك الحذاء القديم من صندوق الماضي.

حين حاولت إقناع كاميليا بفتح قلبها لحبّ جديد، والقبول بالحديث إلى رجل آخر، ولو على الهاتف، رفضت الفكرة تمامًا. قالت «إن خانه هاتفي سيخونه غدًا قلبي وبعدها جسدي. ألست من قلت إنّ حبًّا كبيرًا وهو يموت أجمل من حبّ صغير يولد؟».

أسقط بيدي. قلت «بلى». قالت «ما أريده منك هو أن تساعديني على البقاء على قيد الحياة بينما داخلي يموت هذا الحبّ الكبير. لا أريد أن أفوّت يومًا.. أو لحظة من احتضاره العظيم. للأسد هيبة

في موته ليست للكلب في حياته، حتى وهو يموت، لن أستبدل بجثّة هذا الأسد رفقة كلاب سائبة!».

مشكلتي مع صديقاتي أنّهن قارئاتي، وحين يشهرن في وجهي كلماتي يهزمنني. ما عدت أعرف لكاميليا دواءً؛ فهي تريد أن تنسى ولا تريد، وتريد أن تشفى ولا تريد، وتريد حذاءها القديم وتدري أنّها في النهاية، يوم تتأكّد من أنّه اهترأ تمامًا، ولا إسكافيّ يمكنه إصلاحه، ستحتاج إلى حذاء جديد، فلا يُمكنها مواصلة السير في دروب الحياة وجادّة الحبّ حافية!

على اللائي يشقين في الحياة، بسبب ألم حذاء جديد أو ذكرى حذاء قديم، أن يحمدن الله كثيرًا على نعمة امتلاكهنّ أقدامًا، أعني قلبًا مشين به في دروب الحبّ. ثمّة من جاء ومضى من دون أن يبرح مكانه. لم تمنحه الحياة قدمين.. عاشقتين. وأولئك لم يمنّ عليهم الله حتى بنعمة الشقاء والعذاب من الحبّ!

* * *

بقيت أتذمّر من عدم امتلاكي حذاءً حتى رأيت رجلاً بلا قدمين

كونفوشيوس

طائر الحبّ الذي ما كنت تنتظرينه

لن أبقى طويلاً هنا . . لكن جميل أن تأتي

عبّاس بيضون

شهران وأنا أواظب على مهاتفتها يوميًّا كي لا تضيع جهودي سدًى. فقد تعلّمت أنّ في الحبّ، كما مع المضادّات الحيويّة، لا بدّ من إتمام العلاج حتى آخر يوم وآخر حبّة دواء، تفاديًا للانتكاسات العاطفيّة التي لا يعود يفيد معها شيء بعد ذلك حين يستفحل داء الحبّ ويعود أقوى.

كانت صديقتي في تحسّن دائم، لكنّها كانت تحتاج إلى حبّ جديد لتعود إلى الحياة. طبّقت كلّ نصائحي. أصبحت أكثر جمالاً واهتمامًا بنفسها. أصبحت أكثر انشغالاً بهواياتها. لكن لا رجل دخل حياتها، ربّما لأنّها ما زالت تحرس باب القفص، تنتظر منذ عام عودة طائر الحبّ الذي مضى.

هاتفتها ذات مساء، أعرض عليها مرافقتي إلى أمسية شعريّة

لشاعر كبير يزور بيروت. لم أترك لها مجالاً للرفض، قلت «سأمرّ لأصطحبك معي كوني جاهزة.. أعني كوني جميلة بعد الآن سأصطحبك إلى كلّ مناسبة ثقافية...».

أمام كسلها وتردّدها، قلت:

ـ غادري القفص. طائرك لن يعود طالما ذبذباتك تقول له إنّك في انتظاره. نسيت أن أعلّمك الدرس الأهمّ: فقط عندما لا تنتظرين الحبّ يعود. وعندما لا تتحرّشين به يجيء صاعقًا وفتّاكًا كما أوّل مرّة.

عندما نزلت من البيت كدت أشهق وأنا أراها قادمة. صحت بها ممازحة «أنا مجنونة لأدخل إلى الصالة معك.. كم أنت جميلة اليوم!» قبّلتني وقالت «بل أنت الأجمل.. أحبّك».

كآخر مرّة قبل سنوات يوم صادفتها في مناسبة ثقافيّة، كنت أرى الجميع يحتفون بها، يأتون للسلام عليها. لكنّها هذه المرّة فقدت صوتها، كانت تكتفي بالاستماع.

ثمّ فجأة، ما عادت تتابع الحديث من حولها. تجمّد نظرها وهي ترى رجلاً بمظهر مميّز يلج إلى البهو. كأنّما الرجال اختفوا، فلم يبق سواه رجلٌ بين الحضور!

ذهولها انتقل إليّ. ما كاد الرجل يراها حتى توجّه نحوها. كأنّه جاء من أجلها، برغم كونه بدا متفاجئًا وهو يلمحها.

لم يصافحها، لم يقبّلها على وجنتيها، لم يقل تقريبًا شيئًا، لكنّ كلّ شيء فيه كان يضمّها.

ما رأيت مشهدًا عشقيًّا أكثر عنفًا والتباسًا. حتى هي المخرجة تجاوزت صاعقة المصادفة خيالها السينمائي، لكأنّي جئت بها لتلقاه، ربّما امتنانًا لي قالت وهي تعرّفه بي:

ـ صديقتي الكاتبة...

أضافت إلى اسمي صفة الكاتبة، كما لتقول إنّني من شارك القدر في كتابة هذه المصادفة.

رفع الرجل نحوي نظرة آسرة دون جهد. مدّ يده يصافحني بفرح مهذّب. قال فقط:

ـ سعيد بمعرفتك.

لم يبد عليه ما يشي بأنّه قرأني أو عرفني. لعلّه سمع بي، أو لعلّه لم يسمع، رآني يومًا ما على صفحات الجرائد أو لم يرني من قبل.

كانت حواسّه، كما ذاكرته، مأخوذة بالمرأة التي ترافقني. وكنت سعيدة أنّهما نسيا حضوري الصامت المنسحب في حضرة الحبّ.

ابتعدتُ كي يتبادلا الاشتياق.. ثمّ رأيته يودّعها ويمضي صوب قاعة المحاضرات، وسيمًا في إدباره كما في قدومه.

تأخّرنا عن الالتحاق بالقاعة. كانت تتعمّد ألاّ تدخل معه في الوقت نفسه فتغذّي الإشاعات. كان واضحًا أنّها لم تستمع إلى شيء ممّا أُلقي من كلمات. راحت تبحث عنه بعيون قلبها. كانت ركبتاها ترتجفان بعض الشيء.

كلّ ما قالته:

ـ لن تصدّقي ما يحدث.

وحين أعدت طرح السؤال عليها «ماذا يحدث؟» التزمت الصمت، أو لعلّها لم تسمعني. قلبها ما كان يستمع إلاّ إلى دقّات قلبه الذي يخفق في مكان ما في القاعة.

في السيّارة، وبعد شوط من الصمت، حاولت استدراجها لاعتراف ما؛ قلت:

ـ كأنّي أعرف ذلك الرجل الذي سلّمت عليه. لا أدري أين رأيته من قبل.

قالت ممازحة، هربًا من سؤالي:

ـ ربّما صادفته في كتبك. ألم تقولي «أجمل حبّ هو الذي نعثر عليه أثناء بحثنا عن شيء آخر».

لم أفهم.. أتكون عثرت على حبيبها حين يئست من انتظاره وذهبت عساها تلتقي بسواه؟ أم هي عثرت على سواه أثناء بحثها عنه؟ المؤكّد أنّه حبّ قديم اشتعل بعد غياب، من رماده.

ما كانت جاهزة لفتح أيّ حديث. هي أصلاً لم تحدّث أحدًا عدا ذلك الرجل. كأنّها جاءت لتكسر به حداد صمتها. تركتُها تعيش ذهولها به.

قلتُ لها وأنا أودّعها «بعد غد سنحضر العرض الأوّل لفيلم...». ردّت «اعذريني، تدرين أنّني لا أحبّ هذه المناسبات».

قلت مازحة «أفهم ذلك.. يكفي أن تحضري مناسبة كلّ أربع سنوات.. لتعودي بحبّ. برغم ذلك لن أدعك تعودين إلى خمولك. سأهاتفك غدًا.. ربّما غيّرت رأيك».

في الغد، عبثًا حاولت الاتّصال بها بتوقيت ساعتنا الصباحيّة. كان خطّها مشغولاً، وكنت مشغولة أيضًا بالاستعداد للسفر. بعد يومين عاودت الاتّصال بها عند التاسعة صباحًا. قالت إنّها استيقظت باكرًا، وإنّها تأخذ فطورها على الشرفة. سألتني إن كنت أودّ المرور بها لنتناول الفطور معًا. أجبتها أنّني على أهبة سفر ولا وقت لي.

ـ كم ستتغيّبين؟

ـ أسبوعين، لكن اطمئنّي، سأهاتفك من الجزائر بتوقيت موعدنا!

ـ معقول؟ الأمر مكلف.. لا تهاتفيني رجاءً.

علّقتُ مازحة:

ـ وما دخلك في مصاريفي؟ أنا أهاتفك لأنّي أحتاج أن أهاتف أحدًا عند الساعة التاسعة!

ضحكنا كثيرًا.

قالت:

ـ إذن دقّي دقّة واحدة عند الساعة التاسعة.. سأكتفي بها!

قلت:

ـ صدقت. في النهاية لا يحتاج الحبّ إلى أكثر من دقّة. السعادة تكفيها دقّة واحدة!

احترمت وعدي كي لا أكسر عادتي.

على مدى أسبوعين، كنت أدقّ دقّة على هاتفها عند التاسعة بتوقيت بيروت، الثامنة بتوقيت الجزائر، السابعة بتوقيت لندن!

إنّه الجنون... مجدّدًا

«ربّما كان من الخير أن نحبّ بعقل ورويّة ولكن من الممتع حقًّا أن نحبّ بجنون»

البارونة أوركزي

حال عودتي إلى بيروت، استعدت عادتي الهاتفيّة. بدأتُ صباحي بالاتّصال بكاميليا بتوقيت موعدنا، عساني أعرف أخبارها. أخيرًا دقّ الهاتف في بيتها. ما كان مشغولاً هذه المرّة كما في كلّ مرّة حاولت الاتّصال بها من الجزائر. لكنّ المفاجأة كانت أن ردّ عليّ صوت رجل!

من صدمتي، اعتذرت منه وأعدت طلب الرقم، لكنّ الصوت نفسه ردّ على الطرف الآخر من الخطّ.

سألته غير مصدّقة تمامًا:

ـ هل يمكن أن أتحدّث إلى كاميليا؟

أجاب الرجل:

ـ إنّها عند الحلاّق.

ـ التاسعة صباحًا عند الحلاّق؟!

كانت تلك المفاجآت مجتمعة أكبر من أن أستوعبها. كيف أشرح له أنّ التاسعة صباحًا هي «ساعتي» وأنّه ليس من عادة كاميليا أن تغادر البيت في هذا الوقت.

ثم، من هو هذا الرجل؟ السؤال الأهمّ هو هذا بالتحديد. لكن بأيّ حقّ أطرح عليه سؤالاً كهذا وهو في بيتها، ويردّ على هاتفها في غيابها.

قلت معتذرة:

ـ أنا صديقتها.. أحاول الاتّصال بها منذ أيّام، لكنّ خطّها مشغول دائمًا. أردت الاطمئنان عليها ليس أكثر.

ـ إنّها جيّدة.. فقط هي مشغولة بالاستعداد للسفر. سنسافر بعد الظهر، لذا هي منهمكة بعض الشيء.

ـ تسافران اليوم؟!

كانت نبرتي شبيهة بنبرة عشيق غيور اكتشف خيانة حبيبته.

حاولت تخفيف وقع سؤالي، بسؤال آخر.

ـ إنّها مفاجأة... تسافران إلى أين؟

ـ إلى اليونان..

قلت مندهشة:

ـ متى قرّرتما هذه السفرة؟

ـ البارحة... أو بالأحرى منذ زمن.

لم أناقش الرجل في ما يقوله. كنت أريد مناقشتها هي.

متى دخل هذا الرجل في حياتها؟ أيكون هو ذلك الرجل الذي التقت به ذلك اليوم في البهو؟ وهل يمكن أن تسافر مع رجل التقت به قبل أيّام؟ مثل هذا التصرّف لا يشبهها. أو لعلّ الآخر عاد. لماذا لم تخبرني بذلك إذن؟ لعلّها خافت أن أعود وأحذّرها منه، استنادًا إلى عام من العذاب. وماذا لو كان صديقًا قديمًا أو مشروع حبّ سابق وجد الآن فرصته لدخول حياتها؟ فكثيرون كانوا يتمنّونها حبيبة ويحسدون من اختارته وأخلصت له من دون الرجال. كأنّ في وفائها المرضيّ له إهانة معلنة لرجولتهم. ربّما عادوا الآن ليجرّبوا حظّهم.

كنت سأستدرجه للكلام، عساه يقول ما يشي به، لكنّه هو من قال ما فاجأني:

ـ سأخبرها أنّك اتّصلت. ثمّ أضاف بضحكة مخاتلة.. ألست صديقتها التي تحرّضها على النسيان؟

أفقدتني سخريته المهذّبة صوتي، وامتلأت غيظًا. كيف لم تحتفظ بسرّ كهذا؟ وأفشت به لأوّل رجل دخل إلى حياتها. أو لذاك الذي عاد إليها وقضيتُ شهرين أقنعها بنسيانه. يا لحماقة النساء!

أجبته مدارية إحراجي:

ـ كنت فقط أساعدها كي تتماثل للشفاء.

ـ تقصدين تتماثل للشقاء. وعندما تكون قد نسيت كلّ شيء هل

ستكون أسعد؟ وُجد الحبّ ليُنسيك الموت. لذا كلّما تنازلت عن مساحة من ذكرياتك تقدّم الموت واحتلّها.

انقلبت كلّ الأدوار، وأصبحت في دور المتّهم. وجدتني أدافع عن نفسي:

ـ أنا ما أردتها أن تتخلّى عن ذكرياتها، بل فقط عن رجل عذّبها وأبكاها وأشقاها ونسيها.

ـ من قال إنّه نسي؟ أتعتقدين أنّ الفيل وحده يتذكّر؟ ووحدها التماسيح تبكي؟ ووحده النسر يُخلص؟

أيكون ذلك الرجل عاد بعد عام من الغياب وهو الآن يصفّي حساباته معي؟ يا لتلك الحمقاء. لكأنّها قضت فترة غيابي في الحديث له عن وصفاتي لنسيانه!

سألته ممازحة تلطيفًا للجوّ:

ـ عذرًا.. أتكون نسرًا؟

جاء جوابه مراوغًا:

ـ تمنّيت لو كنت نسرًا! أنا مجرّد رجل. لكنّ النساء عامّةً لا يفرّقن بين النسور والصقور. النسر لا يحطّ على جيفة ولا يعود إلاّ لأنثاه.

ـ ولماذا يتخلّى عنها إذن؟ أهو نداء المدى؟ ولأنّ جناحيه أضخم من أن يبقياه أرضًا!

ـ لا.. مأساة النسر أنّه أسد يطير، هو أسد السماء. لكنّ أنثاه

لا ترى فيه إلاّ طائرًا. ماذا تعرف النساء عن غيرة الأسد وأنفته؟ عن جنونه حين يشكّ في أنثاه فيعود لينكّل بصغارها؟

ـ على علمي، هو يفعل ذلك حين يريدها وتمانع!

ـ جميل.. يبدو أنّك تعرفين عن الحيوانات أكثر ممّا تعرفين عن الرجال!

ـ معلوماتي تقتصر على الحيوانات التي أحببت.

ـ في المرّة القادمة أحبّي نسرًا كي تطمئنّي إلى كونه سيعود، فالفيل يملك ذاكرة انتقاميّة..

ـ ولهذا يموت وحيدًا!

ـ وهل أحببت فيلاً أيضًا؟!

ـ كنت سأفعل طمعًا في وفائه. لكنّ عيوبه أكبر من حسناته لذا ألغيت المشروع. سأكتفي بحبّ رجل!

ـ لماذا تعتقد النساء أنّ الرجال جميعهم خونة؟ ثمّة سادة للوفاء جاهزون للموت عشقًا. كما ثمّة نساء خائنات يقتلن في الرجل رغبته في الإخلاص. الرجل يحلم بامرأة يخلص لها. بإمكانه أن ينتظرها عامًا وأكثر. سيستعين بذكراها على كلّ نساء الأرض فقط من أجل شهقة اللقاء حين يعود لها.

ظننتني أمسكت بدليل على أنّه الحبيب السابق. سألته:

ـ هل أفهم أنّك عائد من الماضي؟

ضحك ضحكة ماكرة وقال:

ـ الماضي؟ لا أنا رجل الحاضر.

ـ ولماذا تدافع عن الماضي إذن؟

ـ أنا لا أدافع عن الماضي، أنا أؤمن بالحيوات العدّة لقلب واحد ليس أكثر.

أسقط بيدي. هذا رجل خارج التقويم الزمني العاطفي. لن أعرف أبدًا من يكون، لكنّني أتوقّع أن يكون أحبّها بجنون في زمن ما.

كما حين قال:

ـ أتظنّين العشّاق الذين انصرفوا باكرًا مستغرقين في النسيان؟ عندما يتعذّر عليك أن تحبّ أكثر أحبّ أقلّ. كلّما ينسحب الحبّ يعود أقوى. إنّه يتغذّى من فقدانه. صمت بعض الشيء ثمّ أردف:

ـ كلّ العذاب في كونك لا تدرين كيف يعيش الآخر فقدانه لك.. وبمن استعان لنسيانك!

تراه كان يعني صديقتي؟ كنت أُعدّ دفاعي عنها فأنا أعرفها بقدر ما يعرفها وأكثر. أنا صديقتها منذ خمس عشرة سنة وإن كان هذا رجلاً قد أحبّته يومًا في الماضي فهي حتمًا أخلصت له. لكنّ الحبّ لا يكتفي ولا يشبع. إنّه التهام للآخر وافتراس له. كِلا العاشقين يرى أنّ ما أعطاه أقلّ ممّا أُعطي، وأنّه لم يفترس حبيبه تمامًا وكليًّا. ثمّة شيء منه نجا من بين فكّيه، وعلى هذا القليل يختصمان.. ويفترقان!

قبل أن أبدأ في مرافعتي، دقّ هاتفه الجوّال واضطرّ إلى قطع مكالمتي معتذرًا. ربّما كانت كاميليا على الخطّ. حتمًا هي ما

اكتفت بما أرسلت إليه من ميسّاجات أثناء وجودها تحت السيشوار.. الآن يلزمها صوته!

وفّر عليّ مجيء الهاتف كثيرًا من الجدل، وعناء الدفاع دون جدوى عنها. ثمّ أنا لن أعرف أبدًا أيّهما على حقّ. يقول مثل لبناني «قاضي الأولاد شنق حالو» فما بالك إذن بقاضي العشّاق!

حين توقّف صوته لعنته في قلبي.

كم شوّش هذا الرجل عقلي! كنت سعيدة قبل سماعه، كنت من حزب النسيان، وأصبحت من أنصار النسور. ولو استمرّ الحديث معه، كنت سأنشقّ عن حزب النساء، وأنخرط في حزب الرجال.

أعود وأصحّح نفسي، بل أنخرط في حزب العشّاق، فهذا الرجل أسرني بكلامه، لأنّه يدافع عن الحبّ. كلّنا ضعفاء أمام الحبّ. كيف أعلن الحرب على رجل يقول إنّه يريد أن يحبّ امرأة كلّ دقيقة، ومأخذه عليها أنّها احتفظت بدقائق لنفسها.

ماذا نريد غير رجل كهذا؟ لولا أنّ هذا المخلوق ليس رجلاً. هو نفسه يقول إنّه نسر.. وأسد. فكيف نعيش معه في غاب هو ملك فيه علينا؟ لماذا ناضلنا إذن نحن النساء على مدى قرون؟

في الواقع، نحن ناضلنا لنستعيد حقوقنا من هذا الرجل بالذات، ثمّ عدنا وناضلنا لنستعيده هو بالذات، وما زلنا لا ندري ماذا نريد منه بالتحديد.

أنا نفسي لا أدري ما أريده منه. أشعر أنّي بقيت على جوع إلى حديثه. ثمّة أشياء كان يمكن أن أسرق بوحه بها وهو في فرحته هذه

بعودة الحبّ. إنّها اللحظة الأمثل لاقتناص بوحه. بعدها سيأتي زمن تتوقّف فيه ثرثرة الرجال. تحتاجين حينها إلى إجلاسه على كرسي كهربائي.. لتأخذي منه كلمة.

قرّرت أن أعاود الاتّصال به. لي ذريعة منطقيّة:

ـ ألو.

ـ هلا.

ـ عذرًا.. أدري أنّك تستعدّ للسفر. أشكرك لأنّك أعطيتني من وقتك...

ـ عندما أُعطي أنسى.

ـ لكن من واجبي ألاّ أنسى لطفك، برغم كوني أعمل على النسيان!

ـ ألهذا اشتريت موقعًا للنسيان على الإنترنت؟

يا الله حتى هذا أخبرته به!

قلت بتحدٍّ:

ـ بل اشتريت اثنين. حتى «نسيان.NET» اشتريته!

ـ إنّه استثمار سيّئ.. لقد اشتريت إفلاسك. لا أفقر ممّن لا ذكريات له!

ـ لن أكون المفلسة الوحيدة.. العالم كلّه يمرّ بأزمة اقتصاديّة. الجميع أفلس.

ـ ولأنّه أفلس يحتاج إلى ذكرياته وماضيه..

ـ ذكرياته الجميلة.. لا البائسة. المطلوب ذاكرة انتقائيّة.. لا يمكن أن نسمح للذين آذونا أن يواصلوا العبث بحاضرنا. أذًى واحد يكفي. ولا تقل «اغفري». أنا لا أغفر! هل تغفر أنت؟!

ـ تقصدين في الحبّ؟ الحبّ أصلاً أذًى، لأنّك لا تتناولينه بجرعات محدودة. تكثرين من الحبيب وتدمنينه فتتأذّي به وتؤذيه لفرط حاجتك الدائمة والمتزايدة إليه. ثم تتمرّدين عليه وتهجرينه.. فتمرضين به وتتسبّبين في مرضه. وفي هذه الحالة فقط أغفر، عندما من يؤذيك حبًّا يفوقك عذابًا بك.

ـ شكرًا.. لكأنّك تزفّ لي بشرى.

ـ بل أزفّ لك خبرة.

ـ أتكون طاعنًا في الحبّ؟

ـ طاعن في الأذى!

حاولت أن آخذ «الأذى» مأخذه الأجمل.

قلت:

ـ في جميع الحالات، يسعدني أن أكون شاهدة على حبّكما.

قال كما ليذكّرني بدوري السابق في إقناعها بنسيانه، قاطعًا عليّ طريق العودة للتدخّل في قصّتهما:

ـ العشّاق والشرفاء ليسوا في حاجة إلى شهود.

كان واضحًا أنّه يعاتبني ويلغي دوري في حياتهما بعد الآن. ككلّ الرجال، هو لا يطمئنّ إلى الصديقات اللائي يحطن بحبيبته. يدري

قدرتهنّ على تشكيل حزب في مواجهته عند أوّل خلاف. إنّه، كأيّ حاكم، لا يرضى بتأسيس أيّ تجمّع خارج حزبه.

راودني الإحساس أنّه قد يسعدها لأيّام ثم سيستفرد بتعذيبها. ولن تجرؤ على أن تعود لتشكوه لي مجدّدًا.

قلت:

ـ لقد عاودت الاتّصال بك، لأنّ لي طلبًا عندك؛ ربّما لن تسمعني مجدّدًا، ربّما لن نلتقي أبدًا، لكنّ لي ثقة في شهامتك. أيًّا كنت عدني ألاّ تعذّبها، فقد تعذّبت كثيرًا في الأشهر الماضية. ما عاد لي من وقت ولا جهد لمساندتها مرّة أخرى. كن أنت سندها حتى حين تكون أنت الخصم. إنّي أودعتك إيّاها.

صمت ثمّ قال:

ـ الغالي وديعة الغالي.

وأغلق الخطّ.

لم تغادرني لغة ذلك الرجل.

مذ «هلا»... إلى ما ترك خلفه من أسئلة.

ما أحلى الرجوع إلى... مصائبه!

«من الصعب أن تحبّ وتكون حكيمًا»

عاد الحبّ..

وعادت كاميليا إلى عادتها القديمة.

عشقها المفترس افترس أعصابي، وأتوقّع أن يعود ويفترس أحلامها مجدّدًا.

أحاسيس كهذه أقوى من أن تحافظ على خطّ بيانها. إنّها تستنزف أصحابها مدًّا وجزرًا، وصالاً وهجرًا. هو العشق، إنّه التطرّف نفسه. وقريبًا ستبكي كاميليا من جوره ومن ظلمه وصدّه. ولن أكون هنا بعد اليوم لتبكي على كتفي.

شهران وأنا أستميت دفاعًا عن النسيان. من أجلها ومن أجل الحمقاوات أمثالها، اشتريت كلّ نسيان العالم واستحدثت موقعًا. وأسّست حزبًا نصّبت نفسي عليه أمينًا عامًّا ونائبًا. واثقة أنّني لو

رشّحت نفسي في الانتخابات اللبنانيّة (وهو ما يحقّ لي بصفتي لبنانيّة أيضًا) سأكتسح الساحة السياسيّة. ولن أُبقي من كرسي لأقطاب ٨ أو لـ ١٤ آذار. فأنا لا أحتاج إلى طبل أو إلى مزمار، ولا إلى ليرة أو دولار، لأقنع خمسة منتخبين على ستّة بإعطائي أصواتهم، نظرًا إلى أنّ هذه هي نسبة الفتيات في لبنان مقابل رجل واحد أحد!

أسوق هذه التوضيحات، حتى لا يقول أحدكم إن أنا فزت بنسبة تفوق ما يتقبّله المنطق، أنّني زوّرت الانتخابات.

وفي جميع الحالات، أنّه غير وارد على الإطلاق أن تسمح أنفتي بأقلّ من الفوز الساحق على كلّ من تراوده نفسه بالترشّح ضدّي، فـ «السحق» حقّ أزلي من ثوابت الديموقراطيّة العربيّة عندنا.

برغم أنّ الحملة الانتخابيّة في لبنان هي الأغلى في العالم، لن أحتاج إلى دعم مادّي من أيّة جهة إقليميّة، ولا أُريد أن يتبنّى حملة انتخابي عصابة من المقاولين وكبار اللصوص، فأعدهم بالصفقات والمناصب الحلوب، ولا أن أمدّ يدي إلى خبز الفقراء لأموّل من خزينة الدولة صوري العملاقة على الجدران، ومنشوراتي الدعائيّة.

حمدًا لله، النسيان مطلب نسائي جماهيري، لا يستدعي ترويجًا ولا تهريجًا.

وقد تؤهّلني نتائج الانتخابات لإعلان نفسي رئيسة جمهوريّة النسيان لكلّ نسوان العالم العربي، وحينها سأتصرّف لمرّة كرجل.

لتعذرني الأخوات المناضلات، لن أرضى بتقاسم السلطة أو تداولها مع أحد. وكما يشغل الحكّام شعوبهم بالحروب والقضايا المصيريّة، سأشغل النساء بـ «الشوبينغ» وأجعل منه قضيتهنّ الأولى، وأستحدث من أجلهنّ أعيادًا للتسوّق، ومواسم للتنزيلات تبدأ من (هلا يناير) إلى (هلا ديسمبر)، كي أتمكّن من التفرّغ للحكم وحراسة الكرسي.

ثمّة وجاهة في أن يكون المرء «حارس كرسي»، حتى وإن كان كرسيًّا شاغرًا للنسيان.

حتمًا ستواجهني إشكاليّة توريث هذا الكرسي، نظرًا إلى كون المنصب يتطلّب امرأة وأنا لم أنجب إلاّ صبيانًا.

لكنّني، حمدًا لله، عثرت على حلّ يتناسب مع الحلول العربيّة لتوريث السلطة، أتمنّى أن تتفهّموا تأجيل إعلاني هذا المشروع إلى الكتاب القادم.

المشكل الحقيقي سيكون في صعوبة حكم ملايين النساء الحمقاوات اللائي لا يمتثلن للتعليمات، ولا يعرفن ماذا يردن بالضبط من الحياة. هنّ منخرطات في حزب النسيان وعينهنّ على الرجال. يقلن «لا» ويضمرن «نعم».

كهذه المجنونة التي أنفقتُ شهرين في إقناعها بالنسيان، وما كاد يقول لها هذا الرجل «هاي» حتى قالت لي «باي» ولحقت به. بل لم تقل لي حتى «باي» ولا أخبرتني بما حلّ بها. ولا كيف تطوّرت

الأمور بهذه السرعة بينهما وحصلت المعجزة. أليس من حقّي أن أعرف؟! أهاتفها فيطلع لي رجل.. لا أعرف حتى الآن من هو. معقول؟! يعرف هو كلّ شيء عنّي ولا أعرف حتى اسمه!

يا الله كم الفرح أناني! وكم الحبّ لا مبالٍ! حين يجيء الحبّ بسعادته الخرافيّة تلك، تنسى الأخت أختها، والصديقة صديقتها، ويتنكّر الأب لأولاده.. والأولاد لأمّهم.

للحبّ مجرّة لا علاقة لها بأفلاكنا. كاميليا الآن في كوكب على بعد سنوات ضوئيّة من عالمي الأرضي. لا يمكنها رؤيتي حتى بالعين المجرّدة. باختصار، ما عدت موجودة بالنسبة لها، وقد كنت على مدى شهرين كلّ حياتها.

أخذت السمّاعة وطلبتها على جوّالها، فردّت عليّ بشهقة الفرحة من كوكبها، وهي وسط ضجيج صالون الحلاقة.

ـ أهلاً.. حبيبتي اشتقت لك.. متى وصلت؟ طمّنيني عنك.

ـ وصلت البارحة.. حاولت الاتّصال بك لكن..

ـ أنا لا أسمعك جيّدًا. إنّي في صالون الحلاقة.

ـ متى أراك؟

ـ سيكون صعبًا أن نلتقي اليوم.. سأغادر إلى المطار بعد ساعتين.. أراك حين عودتي بعد أسبوع أو أطلبك من هناك.

ـ أحتاج أن أراك قبل أن تغادري!

ـ هل ثمّة شيء؟

(سبحان الله تسألني أنا إن كان ثمّة شيء أو «خبر عاجل» ما؟)

ـ ثمّة أشياء. . لا بدّ أن نلتقي قبل سفرك. أعطني عنوان الصالون حيث أنت. سأكون عندك بعد نصف ساعة على أبعد تقدير.

سجّلت عنوان الحلاّق على ورقة بيضاء كانت على مكتبي. ثمّ تنبّهت إلى شيء، فجلست في مكتبي. قلبت الورقة ورحت أكتب على وجهها الآخر تعهّدًا خطر نصّه في ذهني، فالكلام في مثل هذه الحالات لا جدوى منه!

ارتديت ثيابي على عجل، ولحقت بها عند الحلاّق. كانت الصبغة على شعرها. وقفت تسلّم عليّ بشيء من الاستغراب.

ـ شغلتي لي بالي. هل ثمّة شيء؟

ـ أردتُ أن ألحق بك يا عزيزتي لتوقّعي لي هذه الورقة، قبل أن تأخذي الطائرة. .

نظرتْ إلى الورقة باستغراب وأخذتها منّي وراحت تطالعها بفضول.

كان على أظافرها طلاء لم يجفّ بعد. أمسكت بالورقة بحذر بإصبعين، وهي مدهوشة لا تفهم ما الموضوع.

أخذت منها الورقة، وضعتها على الطاولة الصغيرة المقابلة لها تحت المرآة وقلت:

ـ طلبتك في البيت وردّ عليّ رجل. أتوقّع أن يكون حبيبك المنتظر، أو حبيبًا سابقًا لا يهمّ.

بدا عليها الارتباك. قلت:

ـ كان عليك أن لا تخفي عليّ الخبر. كأنّي بك قد خشيت ردّ فعلي. أنا لست ضدّ عودته.. ولا ضدّ دخول رجل جديد في حياتك. النسيان ليس غاية؛ إنّه طريق يفضي إلى حبّ آخر. كلّ ما كنتُ أريده ألاّ تتعذّبي بعد الآن بسبب رجل. لا شيء يستحقّ ما عشته من آلام. لا تقبلي أن يتسلّى رجل بتعذيبك من أجل لا شيء، ثمّ يعود متى شاء.. كأنّ شيئًا لم يحدث!

ردّت:

ـ هو أيضًا تعذّب.

ـ إنّه من أراد ذلك، هذا شأنه. أتمنّى ألاّ تضعي تكاليف عذابه على فاتورتك وتعتذري له. يحبّ الرجال قلب الأدوار!

ما كان يعنيها كثيرًا ما أقوله. سألتني بلهفة:

ـ ما دمت قد تحدّثت إليه.. كيف وجدته؟

ـ الحقيقة.. أنا سعيدة أن تكون الحياة قد كافأتك بهذا الرجل. لا أدري إن كان من انتظرته، أظنّه يستحقّ ذلك. هذا رجل من سلالة النسور. أسميته «الرجل النسر». إنّه رجل نادر على أيّامنا. كان خوفي أن تكوني انتظرت واحدًا من الرجال العصافير الذين ينقرون الفتات حيث وُجِدَ ويطيرون.

سعدت لكلامي، امتلأت ملامحها بهجة، كما لو أنّها نجحت في الامتحان.

قلت:

ـ عليك، برغم ذلك، أن تعلمي أنّ مثل هذا الرجل سيعاود الطيران. إنّ من غاب كلّ هذه المدّة اكتسب مناعة ضدّ الفقدان. أجنحته أكبر من أن تدجّنيها، وعشقه أكبر شراسة من أن لا يؤذيك مجدّدًا. وفي المرّة القادمة انتكاستك ستكون أكبر، وألمك أعظم، لأنّني لن أكون هنا لمساندتك.

صمتت وشحب لونها فجأة. لكنّ صوت قلبها كان يغطّي على صوتي. هي كانت تصدّق نصف ما أقول، تراهن على المعجزة. ربّما عاد ليرتاح ويُريحها. ليس في مقتبل العمر هذا النسر!

قلت:

ـ أتوقّع أنّ ما قلته لك على مدى شهرين قد تبخّر أمام فرحتك بعودته. ليبق لك ممّا قلته على الأقلّ أربع نصائح. إن حفظتها وعملت بها لن يعذّبك رجل بعد الآن. لقد كتبتها لك في هذه الصفحة في صيغة تعهّد. أريد منك أن تقرئيها بتمعّن، وأن توقّعي أسفل هذه الورقة.

ضحكت وقالت:

ـ معقول.. جنّيتِ؟!

ـ لا.. لكنّني أدري أنّ السعادة جرّدتك من قواك العقليّة.

إنّ قانون الحبّ لا يحمي الأغبياء والمغفّلين. أريدك الآن، قبل أن تلتحقي به، أن تطالعي هذه الصفحة، وتحفظيها كما كنت تحفظين عن ظهر قلب المحفوظات في المدرسة، فقد توفّر عليك نصائحها كثيرًا من الألم في المستقبل.

ألقت نظرة عجلى على ما جاء فيها، ثم قالت باستخفاف:

- أعرفها.. سبق أن قلتها لي!

- ليس مهمًّا أن تعرفيها بل أن تتذكّريها. ثمّ أريد توقيعك أسفل الورقة.

أخذت قلمًا من محفظتها ووقّعت أسفلها وهي تضحك.. «كاميليا».

قلت:

- أريد اسمك كاملاً أبًا عن جد.. فهكذا توقّع النساء اللائي يحترمن أنفسهنّ ويحترمن معاهداتهنّ.

قالت ضاحكة:

- معقول.. تريدين شجرة عائلتي!

- طبعًا.. المرأة توقّع بأصلها لا باسمها، حتى يردعها أصلها. ثمّ تعلّمي أن تضعي بينك وبين أيّ رجل اسم أباك. لا تدخلي الحبّ مقطوعة من شجرة فيُصبح الحبيب فأسك.. الآخر.

لا أدري إن كان كلامي قد أقنعها أم أنّها كانت تستعجل التخلّص من مواعظي. راحت تكتب اسمها كاملاً على الورقة. أثناء ذلك حضرت الحلاّقة تطلب منها مرافقتها لغسل الصبغة عن شعرها.

قلت وأنا آخذ منها الورقة وأقبّلها مودّعة:

- سأحتفظ بها لأذكّرك بوصاياها، في حالة ما عدت لتشكين لي خيباتك. استمتعي بسفرتك فأنت تستحقّينها حقًّا!

في الطريق سخرت من نفسي.

ها أنا وحدي، في حقيبة يدي معاهدة النسيان.. وفي حقيبتها تذكرة سفر إلى جزر الحبّ!

يا للحماقة!

ميثاق شرف أنثويّ

أنا الموقّعة أدناه أقرّ أنّني اطلعت على هذه الوصايا وأتعهّد أمام نفسي، وأمام الحبّ، وأمام القارئات، وأمام خلق الله أجمعين، المغرمين منهم والتائبين، من الآن وإلى يوم الدين، بالتزامي بالتالي:

** أن أدخل الحبّ وأنا على ثقة تامّة أنّه لا وجود لحبّ أبدي.*

** أن أكتسب حصانة الصدمة وأتوقّع كلّ شيء من حبيب.*

** ألاّ أبكي بسبب رجل، فلا رجل يستحقّ دموعي. فالذي يستحقّها حقًّا ما كان ليرضى بأن يُبكيني.*

** أن أكون جاهزة للنسيان.. كما ينسى الرجال.*

التوقيع: كاميليا فؤاد الهاشم

بيروت التاسعة صباحًا

١٨ نيسان ٢٠٠٩

ملاحظة: مطلوب من كلّ قارئة إضافة توقيعها أسفل هذه الصفحة

والآن.. حلّوا عنّي!

أحمل شهادة من جامعة النسيان، ويداي خاليتان كمثل قميص على الحبل

الشاعر السويدي توماس ترانسترومر

في الغد، استيقظت باكرًا. صديقتي التي حاولت إنقاذها من ذاكرة الساعة التاسعة سافرت وأورثتني «ساعتها».

ذهبت مع حبيبها، وتركت لي جثّة هاتف ينوب عنها. «إذا رميت طوق نجاة إلى غريق فسيطالبك حتمًا بركوب سفينتك»!

كاميليا ركبت مركب الحبّ مجدّدًا، ولعلّها وصلت إلى الشاطئ (لن أقول إلى برّ الأمان فأنا لا أثق بما ينتظرها في الجزر المسحورة للحبّ!).

ما عاد لها من عقل لتذكرني، أردتها أن تنساه فنسيتني خلفها أجذّف في بحار الذاكرة، كلّ يوم عند الساعة إيّاها!

كان صوتي خدعة عاطفيّة تكسر ساعتها الداخليّة، تخفّف بالكلمات زرقة الكدمات التي تركها الفقدان. قرص حنان تتناوله كلّ صباح في تضليل هاتفيّ يُنسيها هاتفًا لا يأتي.

تبًّا لها.. لقد بثّت فيّ نيكوتين عادة هاتفيّة عليّ الآن الشفاء منها!

ثمّة خياران: أن أباشر البحث عمّن يهاتفني من الصديقات على الساعة التاسعة، وفي هذا الدواء داء لا أريده. أو أسمح لرجل أن يقوم بهذه المهمّة الهاتفيّة «العاطفيّة». وسيكون عليّ لاحقًا أن أستعين برجل آخر لأتخلّص من طغيان عادته، واستعادة حرِّيّتي. أي أنّني سأكرّر حماقة الشعوب العربيّة التي درجت عبر التاريخ أن تتّكئ على محتلّ لتتخلّص من طاغية!

ثمّة حلّ آخر حضرني للتوّ: أن أقرأ كلّ صباح صفحات من هذا الكتاب عساني أتعلّم منه كيف أنسى، فلا أعرف أحدًا غيري أولى بقراءته.

أحتاج أن أنسى أوّلاً صديقتي وحبيبها، والرجال النسور، والرجال الصقور، وكلّ الذكور والعصافير والأسود والفيلة، وكلّ الحيوانات البشريّة، التي تمشي على هذه الأرض، من أفاعٍ وعقارب وحرباوات وضفادع وأرانب. «ومالك ومال الحيوانات؟» ستسألني ليلى، والساذجات ممّن خالفن وصايا النسيان، وسيأكلهنّ الذئب الحبيب. ولن أجيب.

«لا تقدّم أبدًا شروحًا لأحد. أصدقاؤك الحقيقيّون ليسوا في حاجة إليها وأعداؤك لن يصدّقوها».

لقد قمت من أجلكنّ بما لم تقم به الجدّة الطيّبة التي كنتنّ تحملن إليها الفاكهة حين تحرّش بكنّ الذئب في الغابة. (أو كنتنّ تتذرّعن بزيارتها لتتحرّشن به!) وفتحت لكنّ «حضانة عاطفيّة» في الإنترنت لاستقبال ضحايا الذكريات التعيسة، قصد إعادة تأهيلكنّ للحياة.

والآن «حلّوا عنّي»!

إنّها التاسعة صباحًا.

هنا ينتهي الكلام المباح عن عمركنّ المستباح باسم الحبّ. تركتُ لكنّ صفحة بيضاء، إملأنها بما تشأن من حكاياتكنّ مع الحبّ والنسيان.

ربّما أهديتنّ الكتاب بعد ذلك إلى صديقة أشقاها الحبّ.. أو إلى حبيب سابق. أو ذهبتنّ في مكر أنثويّ حدّ إهداء نسخة إلى من تعتقد أنّها فازت بصفقة، بشغلها مكانكنّ في حياته، عساها تستفيد من هذا الكتاب، في حالة ما لم تكن قد قرأته.. كما أتوقّع!

كنت أهمّ بإحضار مخطوط هذا الكتاب لأُراجعه قبل أن أدفع به إلى المطبعة، عندما دقّ الهاتف.

انتفضت. معقول؟ لم أصدّق! التاسعة صباحًا بالضبط يدقّ

الهاتف! حتمًا ليست كاميليا. من يكون إذن صاحب هذا الرقم الغريب.. البعيد!

ظلّ يرنّ بإصرار حبّ جديد، في حمّى بداياته ولهفته الأولى.

ما كان الهاتف يدقّ بل يخفق، والأشياء من حولي بدأت ترقص، والأوراق على مكتبي تتطاير ابتهاجًا، وخزانة ثيابي تستعجلني أن أردّ. لكنّني قرّرت فجأة ألاّ أفعل.

الكتابة عن «فصل الفراق» تستدعي هاتفًا لا يخفق.

«أتمنّى أن تأخذن بعين الاعتبار تضحياتي»!

لا تنسين، في خضمّ النسيان، أن توقّعن بدوركنّ ذلك الميثاق، وأن ترسلن إشعارًا بذلك إلى موقع **nessyane.com** ليُضاف إلى توقيع كاميليا وتوقيع حزب الصديقات.. وجماهير المناضلات.

من المفروض أن نجمع أربعين ألف توقيع نسائي، بعدد نسخ الطبعة الأولى من هذا الكتاب. (إلاّ إذا قام الرجال بشراء نصف الكمِّيّة من النسخ عن فضول.. أو لمصادرة حقّنا في النسيان!).

أمّا الأهمّ فأن تحفظن وصايا هذه المعاهدة جيّدًا، توفيرًا لأشهر من العذاب وأعوام من الأوهام.

وأقسم بالله العظيم، والله ثم والله، إن لم تتعظن، لأكتبنّ كتابًا خاصًّا بالرجال يُحظر بيعه عليكنّ، أُسدي فيه لهم نصائح لنسيانكنّ!

«دبّروا راسكم» ما عاد لي علاقة بالنسيان، إنّي ذاهبة لأهيّئ لكنّ «كتاب الفراق»!

أعدكنّ بأن يكون جميلاً بقدر ما كان هذا الكتاب مفيدًا.

أتمنّى ألاّ تأتي إحداكنّ في المستقبل لتشكوني ذاكرة عشقيّة ما.

بعد الآن، النسيان... «**نسيان.كُم**»!

الفهرس

قالوا في جاهدة وهبه

الفنّان الكبير وديع الصافي:

«مجاهدة» في سبيل الفنّ الأصيل في هذا الزمن... صوتها متمكّن جدًّا وقويّ... صوت عريض ومثقّف ذو تقنيّة وحرفة عالية وإلمام بالمقامات الموسيقيّة... وهي ملحّنة بارعة أيضًا.

الشاعر سعيد عقل

من فيروزتنا إلى جاهدة، لا خوف على لبنان بعد اليوم... يحلو لي أن أسمّيها رنغانا... اسم يحمل كلّ رنين الكون وتردداته.

الشاعر أنسي الحاجّ

إصرارها على غناء الشعر الصعب ينطوي على تحدٍّ أشبه بمصارعة الزمن.

غونتر غراس، حائز جائزة نوبل للآداب عام ١٩٩٩

لدى جاهدة وهبه قدرة عجيبة على موسقة الشعر وإيصال المعاني الكامنة في القصيدة إلى المتلقّي وكأنّها تُعيد كتابة القصيدة بوصتها ولحنها... أُعجبت جدًّا حدّ النشوة بما لحّنته لي.

الصحافي الأديب طلال سلمان

عنيدة هي جاهدة وهبه، لا تبتذل نفسها ولا تبتذل فنّها... اندفعت تثقّف نفسها أكثر وتدرّب صوتها على إجادة تصل حدود عباقرة الغناء الذين أخلوا دنيانا وارتحلوا.

الروائيّة أحلام مستغانمي

جاهدة وهبه ورّطتني بالشعر، ما كنت أعرف قبلها نّي اقترفت قصيدة. صوتها يمكنه أن يرفع أيّ نصّ إلى مقام الشعر. أكاد لا أتعرّف على نصوصي عندما تغنّني.

معلومات خاصّة بـ CD «أيها النسيان هبني قبلتك»

كلمات: أحلام مستغانمي

ألحان وغناء: جاهدة وهبه

١ ـ *أبدًا لن تنسى*

قانون: غسّان سحّاب (تسجيل استديو UNDERGROUND)

تسجيل صوت: وليد المسيح

٢ ـ ٣ ـ *أكبر الخيانات النسيان*

توزيع: كلود شلهوب، إيقاعات: طوني عنقة، تسجيل استديو: The Talkies

هندسة صوت وميكساج: محمّد كبّي

٤ ـ ٥ ـ *أيّها النسيان هبني قبلتك*

توزيع: ميشال فاضل، إيقاعات: روني برّاك، تسجيل استديو: Audio Vision

هندسة صوت وميكساج: موريس طويلة.

٦ ـ Bonus Track (استديو The Talkies)

ماسترينغ: طوني حدّاد

إنتاج: أحلام مستغانمي وجاهدة وهبه

تنفيذ طباعة الـ CD: حرب تيك Harb Teck

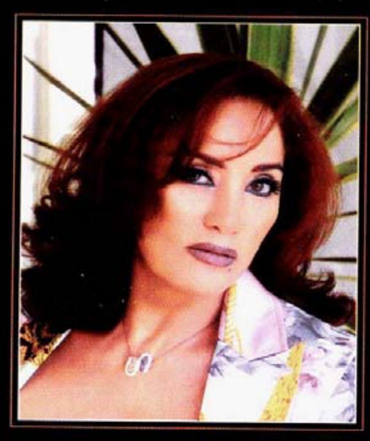
إنتاج طباعة الـ CD: دار الآداب

صورة غلاف الـ CD: بعدسة جورجيو الزين

أداء شعري بصوت جاهدة وهبه

شكر خاص لـ: طوني حدّاد ـ وليد المسيح ـ ماري روز معوّض ـ روني برّاك وكلّ من ساهم في تنفيذ هذا الـ CD.


جاهدة وهبه
Jahida Wehbé
أيُّها النِّسيانُ
هَبْني قُبْلَتَكَ
All rights of the producer and of the owner of the recorded work reserved. Unauthorised copying, public performance, broadcasting, hiring or rental of this recording prohibited.



حاصلة سنة 1982 على دكتوراه في علم الاجتماع من السوربون في باريس تحت إشراف المستشرق الراحل جاك بيرك.

صاحبة الثلاثيّة الشهيرة «ذاكرة الجسد»، «فوضى الحواس»، «عابر سرير».

اختارتها مجلة Forbes الأميركيّة بين النساء العشر الأكثر تأثيرًا في العالم العربي والأولى في مجال الأدب بتجاوز مبيعات كتبها مليونين وثلاثمئة ألف نسخة.

احتلّت المرتبة 49 بين أقوى 100 شخصية عربيّة حسب مجلة Arabian Business

أحبيه كما لم تحب امرأة
و انسيه كما ينسى الرجال

www.nessyane.com
www.facebook.com/AhlamMosteghanemi

تصميم الغلاف نادين فغالي


ISBN 978-9953-89-122-4

السعر في لبنان : 12 دولارًا أميركيًا


دار الآداب

هاتف ٠١/٨٠٣٧٧٨ - ٠١/٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت